

الدفاع عن النبي ﷺ

بالبراهين الشرعية والعقلية

«والتدليل بذلك على صدق نبوته ورسالته»

إعـداد

د. محمد كندو



من أبحاث المؤتمر الدولي
نبي الرحمة محمد ﷺ

المنعقد في الفترة ٢٣ – ٢٥ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢ – ٤ أكتوبر **2010**م

برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز – حفظه الله–

والذي نظمته

الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها (سنن)



www.sunnah.org.sa



المقدمة

الحمد لله الذي هدانا بنبيه محمد ﷺ، وشرَّفنا برسالته الخاتِمة العامَّة، وشريعته الكاملة التامَّة، ووفَّقنا لاتِّباعه الذي جعله عَلَمًا على مَحَبَّتِه ومغفرته وسببًا لرحمته وهدايته، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران:٣١)، وقال سبحانه: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٦)، وقال ﷻ: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٨).

أما بعد: فإن الدِّفاع عن نبي الرحمة محمد ﷺ مسؤوليَّة كبيرة من مسؤوليَّات الأمة الإسلامية؛ لأن الله تعالى بفضله ومِنَّته أخرجهم به من الظلمات إلى النور، وألَّف به بين قلوبهم فأصبحوا إخوانًا، وجعلهم به أمة وسطًا؛ ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدًا.

وقد أدرك أعداء الإسلام في قديم الزمان وحديثه أن عظمة هذه الأمة بعظمة نبيها محمد ﷺ، وأن عِزَّة هذه الأمة في تمسُّكها بمِلَّة نبيها محمد ﷺ

الغرَّاء، وتحكيمها لشريعته السمحاء؛ ولهذا لم يزل الأعداء، ولا يزالون يكيدون كيدًا، ويمكرون مكرًا للنبي ﷺ وللإسلام وللأمة الإسلامية بكل طريق وبكل وسيلة، ﴿ **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ** ﴾ (الأنفال:٣٠)، و﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴾ (التوبة:٣٢).

ولقد أحسنت الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها أيَّما إحسان بتنظيمها لهذا المُؤتمر الدُّوَلِيِّ الذي موضوعه (نبي الرحمة محمد ﷺ) والذي تَضُمُّ مَحَاوِرُه: (وسائل الدِّفاع عن النبي ﷺ بين الغُلُوِّ والجَفاء) ومن هذه الوسائل: (الدِّفاع عن النبي ﷺ بالبراهين الشرعيَّة، والعقليَّة، والتدليل بذلك على صدق نُبُوَّتِه ورسالته).

وإنه لشرف عظيم لي أن كنتُ أحد المُرشَّحين للمشاركة في هذا المُؤتمر الدُّوَلِيِّ الكبير، والكتابة في هذا الموضوع الهامِّ، وإني لأرى ذلك قُرْبَة أحتسب على الله تعالى أن يتقبلَّها، وأن يجزي عنها القائمين على المُؤتمر خير جزاء؛ لقول رسول الله ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»[1].

(١) صحيح مسلم، برقم (٦٨٠٤).



ولا شك أن الدِّفاع عن النبي ﷺ مطلب مشروع وغاية مُنيفَة؛ لِمَا يترتَّب عليه من المَصالح العظيمة في الدين والدنيا، ولِمَا يترتَّب على ترك الدِّفاع عنه ﷺ من المَفساد الكبير في الدين والدنيا.

وقد أقام الله ﷻ للدفاع عن نبيه ورسوله محمد ﷺ براهين ظاهرة، ودلائل واضحة في الشرع والعقل، وهي كذلك براهين وافرة ودلائل كاثرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، ولا يُمْكِنُ لباحث – مهما أُوتِيَ من مُكْنَةٍ ومُهْلَةٍ – أن يُحيط بجُمَلِها فضلًا عن تفاصيلها.

وإني – بعون الله وتوفيقه – باذل جهدي في إعداد هذا البحث المُتواضع وتحريره، وذاكر فيه من البراهين الشرعيَّة، والعقليَّة ما يشفي العليل، ويروي الغليل، وينمي الخليل في الدِّفاع عن نبي الرحمة، ورسول الهدى محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وذلك في تمهيد، ومَبحثين، وخاتمة:

- **أما التمهيد فضمنته خمس مُقدِّمات في شأن النبوة والرسالة كما يلي:**

١- بيان ضرورة النبوة وحاجة الناس إليها، وأن الحياة في هذه الأرض لا تصلُح بدون رسالات الأنبياء.

٢- بيان أن الله تعالى فرض على عباده الإيمان بجميع الأنبياء والرسل،

وأن الكفر بواحد منهم كُفْرٌ بهم جميعًا.

٣- بيان أن الله تعالى أقام براهين وبيِّنات على صدق أنبيائه ورسله؛ لدفع التُّهَمِ والجفاء عنهم، ولرفع الشك والريب تجاههم.

٤- بيان أن التكذيب والأذَى والسُّخْرية ابتلاءات ابْتُلِي بها الأنبياء والرُّسُل؛ لِحِكْمَة يعلمها الله ﷻ.

٥- بيان أن الله تعالى وَعَدَ أنبياءه ورسله بالدِّفاع عنهم، والنصر لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وَفْقَ سُنَّتِه المَاضية، وقدرته الغالبة، وحِكمته البالغة.

- **أما المبحثان:**
- **فأولهما: في الدِّفاع عن النبي ﷺ بالبراهين الشرعيَّة.**

وقد ذكرتُ في هذا المبحث (١٢) اثني عشر برهانًا شرعيًّا من الكتاب، والسنة، والإجماع كما يلي:

١- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان ثناء الله تعالى عليه، ورَفْعِه له ذكره

٢- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان نفي الله تعالى عنه التُّهَم والافتراءات.

٣- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان تحريم الله تعالى إيذاءه بقول، أو فعل.

٤- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان فرض الله تعالى تعزيرَه، وتوقيرَه على أمته.

٥- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان فرض الله تعالى محَبَّته، وجَعْل ذلك من



لوازم الإيمان به.

٦- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان فَرْض الله تعالى على أمته النصيحة له.

٧- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان فَرْض الله تعالى الصلاة والتسليم عليه.

٨- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان فَرْض الله تعالى الجهاد في سبيل الله، ومنه الدِّفاع عن النبي ﷺ.

٩- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان تحدِّي مُعارضيه، وعجزهم على مرِّ العصور.

١٠- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان عصمة الله له من الناس، وكفايته من أذاهم.

١١- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان دفاعه عن نفسه، وانتدابه من يدافع عنه من أصحابه الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

١٢- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان إجماع الأمة الإسلاميَّة على الدِّفاع عنه سلفًا وخلفًا، وإلى أن يأتي أمر الله عز وجل.

- **والمبحث الثاني: في الدِّفاع عن النبي ﷺ بالبراهين العقليَّة.**

وذكرت في هذا المبحث (٦) ستة براهين عقليَّة، كما يلي:

١- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان تعظيم الله تعالى، ونصر دينه.

٢- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان لازم الإيمان به، واعتقاد نُبُوَّتِه ورسالته.

٣- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان ما له من الحقوق الواجبة على أمته.

٤- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان الانتصار للحق ورَدِّ الباطل والظلم والبغي والعدوان.

٥- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان الدِّفاع عن القِيَم العُلْيا، والمَبادىء السامية.

٦- الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان أنه دفاع عن أمة بأجمعها الأمة الإسلاميَّة.

وأما الخاتمة فخَلَصْتُ فيها إلى التدليل بالبراهين الشرعيَّة والعقليَّة في الدِّفاع عن النبي ﷺ على صِحَّة وصدق نبوته ورسالته.

هذا، والله تعالى المُستعان على حصول التمام وبلوغ المرام.

* * *



التمهيد

وفيه خمس مقدمات في شأن النبوة والرسالة:

- بيان ضرورة النبوة وحاجة الناس إليها، وأن الحياة في هذه الأرض لا تصلُح بدون رسالات الأنبياء.
- بيان أن الله تعالى فرض على عباده الإيمان بجميع الأنبياء والرسل، وأن الكفر بواحد منهم كُفْرٌ بهم جميعًا.
- بيان أن الله تعالى أقام براهين وبيِّنات على صدق أنبيائه ورسله؛ لدفع التُّهَمِ والجفاء عنهم، ولرفع الشك والريب تجاههم.
- بيان أن التكذيب والأذَى والسُّخْرية ابتلاءات ابْتُلِي بها الأنبياء والرُّسُل؛ لحِكْمَة يعلمها الله عز وجل.
- بيان أن الله تعالى وَعَدَ أنبياءه ورسله بالدِّفاع عنهم، والنصر لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وَفْقَ سُنَّتِه المَاضية، وقدرته الغالبة، وحِكمته البالغة.



المُقَدِّمة الأولى

بيان ضرورة النبوة، وحاجة الناس إليها، وأن الحياة في هذه الأرض لا تصلح بدون رسالات الأنبياء

النُّبُوَّة: سِفارة بين الله تعالى وبين عباده؛ لتعريفهم ما به صلاحهم وسعادتهم، وكمالهم في العاجل والآجل.

والأنبياء: هم الرجال المُصْطَفَوْن لهذه السفارة الإلهية، و﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ (الحج:٧٥)، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ (الأنعام:١٢٤)، فهم يَتَلَقَّوْن عن الله تعالى رسالاته ويبلغونها إلى أقوامهم بوَعْيٍ تامٍّ، وبأمانة كاملة وبلاغ مبين، وهذا يقتضي أنهم أعلم الخلق، وأكملهم، وأكرمهم على الله عز وجل[1].

ومن هنا تعلم ضرورة رسالات الأنبياء للعباد، وأنه لابد لهم منها، وأن حاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء؛ لأنها جاءت بما لا وسيلة إلى معرفة تفاصيله إلا من طريق الأنبياء، وبما لا سبيل إلى الصلاح والسعادة والكمال في الدنيا والآخرة إلا بالأخذ به إيمانًا وعملًا، فهي إذًا روح العالم ونوره ونظامه، لا

(١) انظر: النبوات، لابن تيمية، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض / ص ٢٨١، ٣٥٢.

يزيغ عنها أحد إلا عاش في الدنيا حائرًا تائها ضاربًا في بيداء طامسة من الخيالات والضلالات والأهواء، وكان في الآخرة خاسئًا خاسرًا خالدًا في العذاب الأليم[1].

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الشورى:٥٢-٥٣)، وقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه:١٢٣-١٢٦).

* * *

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٩/ ٩٣، وزاد المعاد، لابن قيم الجوزية، تحقيق الأرنؤوط ١/ ٦٨.



المُقَدِّمَة الثانية

بيان أن الله تعالى أقام براهين وبيِّنات على صدق أنبيائه ورسله لدفع التُّهَم والجَفاء عنهم، ولرفع الشكِّ والريب تِجاههم

ولَمَّا كان الأنبياء يُبَلِّغُون عن الله تعالى رسالاته، ويُعَرِّفُون الناس ما لهم وما عليهم في الدنيا والآخرة كانوا بذلك حُجَّةً بين الله تعالى وبين عباده، قال ﷻ: **﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾** (النساء:١٦٥).

وقد أقام الله ﷻ على صدقهم وعلى صحة رسالاتهم آيات بينات وبراهين واضحات، كما قال ﷻ: **﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ ﴾** (الحديد:٢٥).

وذلك أنه يمتنع أن يبعث الله تعالى رسولًا يأمر الناس بتصديقه، ولا يكون هناك ما يَعْرِفُون به صدقه؛ ولهذا قال رسول الله محمد ﷺ: «**مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩٨١)، وصحيح مسلم، برقم (٣٨٥).

فآيات الأنبياء لا بد أن تكون مُخْتَصَّة بهم، ومستلزمة لصدقهم، ولا بـد أن تكون خارقة للعادة، بمعنى أنها ليست مُعتادة للآدميين، ولا مَقدورة لهم، ومِـنْ ثَمَّ سُمِّيَت معجزات أو دلائل النبوة [1].

ومُعجزات الأنبياء ودلائـل نبـواتهم كثـيرة ومتنوعـة بحسـب اخـتلاف أزمانهم وأماكنهم وأحوال أُمَمِهم، كما هي مَبسوطة في مظانِّها من الكتب.

***

(١) انظر: النبوات، لابن تيمية / ص ٣٠، ٣١٠.



المقدمة الثالثة

بيان أن الله تعالى فرض على عباده الإيمان بجميع الأنبياء والرسل وأن الكفر بواحد منهم كفر بهم جميعًا

لَمَّا كانت رسالات الأنبياء ضروريَّة للعباد لا بد لهم منها – كما تقدَّم –، كان الإيمان بهم واجبًا على العباد؛ لأن الأخذ برسالاتهم لا يَتِمُّ إلا بالإيمان بهم، وإنما وجب الإيمان بهم جميعًا دون تفريق بين أحد منهم؛ لأنهم جاؤوا كلهم بحق وبكلمة واحدة، كما قال الله تعالى – مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ –: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ** ﴾ (الأنبياء:٢٥)، وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ** ﴾ (النحل:٣٦).

وقال سبحانه: ﴿ **قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ** ﴾ (البقرة:١٣٦). ولهذا كان الكفر بواحد من الأنبياء كُفْرًا بهم جميعًا، ويستوي عند الله ﷻ من أنكر الأنبياء جميعهم ومن أنكر واحدًا منهم بعينه، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ**

بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (النساء:١٥٠-١٥١).

قال الإمام القرطبي – في تفسير هذه الآية -: «نصَّ سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كُفْرٌ، وإنما كان كفرًا؛ لأن الله فرض على الناس أن يعبدوه بما شرعه على ألسنة الرسل، فإن جحدوا الرسل رَدُّوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكانوا مُمْتَنِعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها، فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كُفْرٌ؛ لِمَا فيه من تَرْك التزام الطاعة والعبودية، وكذلك التفريق بين الله ورسله»(١).

وقد مدح الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ والمُؤمنين الذين تابعوه؛ لإيمانهم بجميع الأنبياء، وعدم تفريقهم بينهم، فقال سبحانه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥).

ووعد الله ﷻ الذين آمنوا بالأنبياء، ولم يُفَرِّقُوا بينهم بالمَغفرة، والأجر الكريم، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:١٥٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦ / ٥.



المقدمة الرابعة

بيان أن التكذيب والأذى والسخرية ابتلاءات ابْتُلِيَ بها الأنبياء والرسل لحكمة يعلمها الله ﷻ

قد اقتضت حِكْمَة الله ﷻ أن تكون الحياة الدنيويَّة ابتلاء للعباد، ابتلاء لهم بقضاء الله وقدره، كما قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٥)، وابتلاء لهم بشرع الله وأمره ونهيه، كما قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود:٧)، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (الملك:٢).

ومن هنا كان الأنبياء والرسل مُبْتَلَيْنَ بمن بُعِثُوا إليهم من الناس، وكان الناس مُبْتَلَيْنَ بالأنبياء والرسل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ (الفرقان:٢٠).

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ عن الإمام محمد بن إسحاق قال: «يقول الله: لو شئتُ أن أجعل الدنيا مع رُسُلِي فلا يُخَالَفُون

لفعلتُ، ولكني قد أردتُ أن أَبْتَلِيَ العباد بهم، وأبتليهم بهم»[1].

وفي الحديث عن النبي محمد ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ؛ لِأَبْتَلِيَكَ، وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»[2].

فالأنبياء والرسل قد تعرَّضوا لكثير من الابتلاء بالتكذيب، والأذى، والسبِّ، والسخرية حتى بالقتل أحيانًا.

قال الله ﷻ – لنبيه محمد ﷺ –: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ** ﴾ (الأنعام:٣٤).

وقال ﷻ: ﴿ **كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾ (الذاريات:٥٢-٥٣).

وقال تعالى – لبني إسرائيل –: ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴾ (البقرة:٨٧).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، تحقيق عبد الرزاق المهدي: ٤/ ٥٨٨.

(٢) صحيح مسلم، برقم (٧٢٠٧). (٧). (٨).



إلى غير هذا مما أخبر الله تعالى به من ابتلاءات الأنبياء والرسل، وهم في ذلك كله صابرون قائمون بما أمرهم الله به من البلاغ المُبين، كما قال الله سبحانه: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (الأحزاب:٣٨-٣٩).

***

المقدمة الخامسة

بيان أن الله تعالى وَعَدَ أنبياءه ورسله الدِّفاع عنهم والنصر لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة وَفْقَ سُنَّته المَاضية وقدرته الغالبة وحكمته البالغة

وإذا كانت الحكمة الربَّانِيَّة قد اقتضت ابتلاء الأنبياء والرسل فإن الله ﷻ قد وعدهم الدِّفاع عنهم، والنصر لهم في الدنيا وفي الآخرة هم وأتباعهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ (غافر:٥١)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ (الصافات:١٧١-١٧٣)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (المجادلة:٢٠-٢١).

وهذا النصر والغلب المَوعود للأنبياء والرسل وأتباعهم قاطع وحازم، أما يوم يقوم الأشهاد – وهو يوم القيامة – فلا شكَّ أن النصر والغَلَبَ فيه أعظم وأكبر وأجلُّ وأَدْوَمُ، وأمَّا في الحياة الدنيا فإن النصر والغَلَبَ فيها أعمُّ وأشمل من أن يكون قاصرًا على صورة مُعَيَّنَة مَعهودة للناس، بل الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله والمُؤمنين بهم في الحياة الدنيا بصُوَرٍ شَتَّى[1] منها:

(١) انظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب: ٥/ ٣٠٨٥-٣٠٨٦.



١- التثبيت وربط القلوب والغَلَبَ على أهواء النفوس وشهواتها.

٢- كفايتهم وحفظهم من شر الأشرار، وكيد الأعداء.

٣- الانتصار لهم من أعدائهم بعد ظلمهم لهم، ونيلهم منهم بإنزال أنواع العقوبات عليهم في الحياة الدنيا.

٤- تسليطهم على أعدائهم، وتغليبهم عليهم بالقُوَّة في الحياة الدنيا.

٥- إظهار دينهم، وإعلاء دعوتهم في الأرض على رغم أنوف المُنكرين لذلك.

٦- تكثير سواد أتباعهم، والتمكين لهم في الأرض وجعلهم خلفاء من بعدهم يهدون بهديهم ويَمْضُون رسالاتهم.

٧- تخليد ذكرهم في الحياة الدنيا، وجعله لهم لسان صدق في الآخرين إلى أن يَرِثَ الله الأرض ومن عليها.

٨- الدِّفاع عنهم بحُكْمِه القَدَرِي والشرعي وتقييضه من يدافع عنهم في كل زمان، وفي كل مكان بالبراهين الشرعية والعقليَّة وبالوسائل الماديَّة والمعنويَّة.

فهذه بعض من صُوَر النصر والغَلَبَ الذي وعد الله تعالى أنبياءه ورسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر:٣١)، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ (إبراهيم:٤٧).



المبحث الأول
في الدفاع عن النبي ﷺ بالبراهين الشرعية

وفيه اثنا عشر برهانًا شرعيًّا، كل برهان في مطلب:

- **الدِّفاع عن النبي ﷺ برهان ثناء الله تعالى عليه، ورَفْعِه له ذكره**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ برهان نفي الله تعالى عنه التُّهَم والافتراءات.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ برهان تحريم الله تعالى إيذاءه بقول، أو فعل.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ برهان فرض الله تعالى تعزيرَه، وتوقيرَه على أمته.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ برهان فرض الله تعالى مَحَبَّته، وجَعْل ذلك من لوازم الإيمان به.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ برهان فَرْض الله تعالى على أمته النصيحة له.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ برهان فَرْض الله تعالى الصلاة والتسليم عليه.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ برهان فَرْض الله تعالى الجهاد في سبيل الله.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ برهان تحدِّي مُعارضيه، وعجزهم على مرِّ العصور.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ برهان عصمة الله له من الناس، وكفايته من أذاهم.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ برهان دفاعه عن نفسه، وانتدابه من يدافع عنه من أصحابه الكرام رضي الله عنهم أجمعين.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ برهان إجماع الأمة الإسلاميَّة على الدِّفاع عنه سلفًا وخلفًا، وإلى أن يأتي أمر الله عز وجل.**



المطلب الأول

الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان ثناء الله تعالى عليه ورفعه له ذكره

قد ورد في ثناء الله تعالى على نبيِّه ورسوله محمد ﷺ، ورفع الله تعالى له ذِكْرَهُ سُوَرٌ وآيات كثيرة في القرآن الكريم، ولست في هذا المَقام أستقصي ذلك كله، ولا أحصيه عددًا، ولكنِّي ذاكرٌ هنا أدلة خمسة تغني اللَّبيب:

الأول: قول الله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم:٤).

قال الإمام ابن جرير الطبري – في تفسير هذه الآية -: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإنك يا محمد لعلى أَدَبٍ عظيم، وذلك أَدَبُ القرآن الذي أدَّبه الله به، وهو الإسلام، وشرائعه»[١].

وهذا المعنى مُطابق لما ثبت عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها سُئِلَتْ عن خُلُقِ رسول الله ﷺ؟: فقالت: «**إِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّـهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ**»[٢].

وفي هذا دليل على استحقاقه ﷺ للثناء بما جبله عليه ربُّه عز وجل من مكارم الأخلاق، وكرائم الشِّيَم حتّى إنّ من نظر في أخلاقه وشِيَمِهِ علم أنَّها خير

(١) تفسير الطبري، تحقيق الدكتور عبد الله التركي: ٢٣/ ١٥٠.

(٢) صحيح مسلم، برقم (١٧٣٩).

أخلاق الخَلْق، وأكرم شَمائل الخَلْقِ[1].

وفي الحديث أنّه – عليه الصلاة والسلام – قال: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ؛ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ**»[2].

الثاني: قول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (التوبة:١٢٨).

وفي هذه الآية الكريمة ثناءٌ عظيم من الله تعالى على نبيِّه ورسوله محمد ﷺ، وامْتِنان مِنْهُ تعالى على الناس عامَّة بأن أرسل إليهم رسولًا من أنفسهم يعرفون نسبه وصِفته ومَدخله ومَخرجه، وليس من غيرهم فيتَّهِموه على أنفسهم في النصيحة لهم، بل يعزُّ عليه الشيء الذي يُعْنِتُ أمَّته ويَشُقُّ عليها، فلا يأمر إلاّ بما هو يُسْرٌ ومَصلحة، ولا ينهى إلا عمَّا هو عُسر ومَفسدة، وهو فوق ذلك مهموم بأمَّته حريص على هدايتهم من الضلال، وعلى وصول النفع الدنيويِّ والأخرويِّ إليهم، وهو شديد الرأفة والرحمة بمن آمن به واتّبعه[3].

وهذا الثناء العظيم من الله تعالى فيه تأكيد على ما تقدَّم من ثنائه على نبيِّه

(١) انظر: جلاء اللأفهام، لابن قيم الجوزية، تحقيق مشهور بن حسن / ص ٢٨٩.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٢/ ٣٨١، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٣٤٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٩٦-٩٩، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٣/ ٤٦٦-٤٦٨.



ورسوله محمّد ﷺ بأنّه على خلق عظيم، وفيه كذلك دليل على عموم رسالته لجميع الناس، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:١٥٨)، وكما قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٥١)، وفي ذلك كله دليل على أن خيره، ونفعه، ورأفته، ورحمته عامَّة،كما في الدليل التالي.

الثالث: قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

ففي هذه الآية الكريمة ثناء باهر من الله عز وجل على نبيِّه ورسوله محمّد ﷺ بأنه تعالى أرسله؛ لِيكون رحمة للعالمين، فهو ﷺ رحمة من الله عزوجل لجميع العالمين من الإنس والجنِّ وسائر المخلوقات، وقد قرَّر النبيّ ﷺ ذلك بقوله – في الحديث الصحيح –: «**إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»[1].

ولبيان تحقُّق هذا المعنى في نبيِّ الرحمة عليه الصلاة والسلام قال الإمام ابن قيم الجوزية: «وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾، أنه على عمومه وفيه على هذا التقدير وجهان:

---

(١) سنن الدارمي، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا، برقم (١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٣٤٥).

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أمَّا أتباعه فنالوا به كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه فالُمحاربون له فالذين عُجِّلَ قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كُتِبَ عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر. وأما الُمعاهَدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته وهم أقل شرًّا بذلك العهد من الُمحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حَقْنُ دمائهم وأموالهم وأهلهم، واحترامها، وجريان أحكام الُمسلمين عليهم في التوارُث وغيره. وأما الأُمم النائية عنه فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العامَّ عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى. والكفار ردُّوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها كما يقال: هذا دواء لهذا المَرض فإذا لم يستعمله المريض لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض»[1].

ولا شك أن لكونه ﷺ رحمة للعالمين حتى الحيوانات والجمادات مظاهر

(١) جلاء الأفهام / ص ٢٨٨ – ٢٨٩.



كثيرة وصُوَرًا عديدة ليس هذا موضع بيانها، والله تعالى أعلم.

الرابع: قول الله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا** ﴾ (الأحزاب:٤٥ -٤٦).

وهذه الآية الكريمة فيها ثناء عظيم من الله تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ، فإنه سبحانه ناداه فيها بوصف النُّبُوَّة الدالِّ على الاصطفاء والتكريم الخاصِّ مُؤَكِّدًا هذا النداء بالنصّ على إرساله تعالى إيَّاه، وجعله إياه شاهدًا لله سبحانه بالوحدانيَّة المُطلقة، وشاهدًا على أمته بإبلاغهم الرسالة وبما عملوه من خير وشرٍّ، فيُبَشِّرُ أهل الخير بالجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، ويُنْذِرُ أهل الشرِّ من الجزاء السّيِّء في الدنيا والآخرة، فهو لذلك داعية يدعو جميع الخَلْق إلى الله تعالى بإذن ربِّه له في الدعوة الذي جعله للناس سراجًا منيرًا يهتدون به من الضلال والباطل والظلمات إلى الهدى والحق والنور.

وهذه الأوصاف العظيمة التي أثنى الله تعالى بها نبيَّه ورسوله محمدا ﷺ في القرآن الكريم قد جاء في الأثر الصحيح أنها هي أوصافه ﷺ في التوارة المُنزَّلة على نبي الله ورسوله موسى عليه السلام، فعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: «**لَقِيتُ عَبْدَ اللهَّ ابْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللهَّ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ. قَالَ: أَجَلْ وَاللهَّ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا**

ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا»[1].

وهذه الرواية يُصدِّقُها قول الله تعالى - في القرآن الكريم -: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٤٦).

الخامس: قول الله تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾ (الشرح:١ - ٨).

تَضَمَّنَتْ هذه الآيات الكريمات ثناء الله تعالى على نبيِّه ورسوله محمد ﷺ بثلاث خصال شريفات هي: شرح صدره، ووضع وِزْرِه، ورفع ذِكْرِه، وهي وإن كانت مصدرة بالاستفهام المَقرون بالنفي فهو استفهام تقريري يُقْصَدُ به إثبات المَنْفِيِّ على الطريقة المَعروفة في اللغة[2].

---

(١) صحيح البخاري، برقم (٢١٢٥)، (٤٨٣٨).

(٢) انظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، تحقيق صلاح الدين العلايلي: ٦/ ٧٥.



قال القاضي عياض اليَحْصُبِي: «هذا تقرير من الله جَلَّ اسمه لنبيه ﷺ على عظيم نِعَمِه لديه، وشريف منزلته عنده، وكرامته عليه بأن شَرَح قلبه للإيمان والهداية، ووسَّعه لوعي العلم وحَمْل الحكمة، ورَفَع عنه ثِقَل أمور الجاهليَّة عليه، وبغَّضه لسِيَرِها وما كانت عليه بظهور دينه على الدين كله، وحطَّ عنه عُهْدة أعباء الرسالة والنبوة؛ لتبليغه للناس ما نزل إليهم، وتنويهه بعظيم مكانه وجليل رُتْبَته، ورِفْعَة ذِكْرِه وقرانه مع اسمه»[1].

ويدُلُّ قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ خاصَّة على أن الله جلَّ شأنه خصَّ نبيه ورسوله محمدًا ﷺ بالثناء الحسن العالي الذي لم يَصِل إليه أحدٌ من العالمين، وقد ذهب أهل العلم في بيان ذلك مذاهب:

١) فعن قتادة قال: «رَفَعَ الله ذِكْرَه في الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا مُتَشهِّد، ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»[2].

٢) وقال بعض العلماء: رَفع الله ذِكْره عند المَلائكة في السماء، وفي الأرض عند المُؤمنين، ويَرْفَعُ في الآخرة ذِكْرَهُ بما يعطيه من المَقام المَحمود وكرائم

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق حسين عبد الحميد: ١/ ٢٧.

(٢) تفسير الطيري: ٢٤/ ٤٩٤.

الدرجات[1].

٣) وقال آخرون: رَفَعَ الله ذِكْرَه في الأولين، ونَوَّهَ به حين أخذ المِيثاق على جميع النبيِّين أن يؤمنوا به، وأن يأمروا أُمَمَهُم بالإيمان به، ثم شَهَرَ ذِكْرَهُ في أمته فلا يذكر الله إلا ذكر معه[2].

٤) وأشار بعض المُفسرين إلى أنَّ الله تعالى رَفَعَ ذِكْرَ نبيِّه محمد ﷺ بما نزَّل من القرآن ثناء عليه وكرامة، وبتوجيه الخطاب إليه في نصوص الوحي بمثل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ أو بالتصريح باسمه في مقام الرسالة (محمد رسول الله). ورفع ذِكْرَه في فروع التشريع، كالأذان والإقامة والتشهُّد والخُطَب ونحوها. ورَفَعَ ذِكْرَهُ بإلهام الناس التحدُّث بفضائله، وبما جبله الله عليه من المَحامد منذ نشأته إلى وفاته عليه أفضل الصلاة وأَتَمُّ السلام[3].

والحقُّ أن جميع هذه المَعاني المذكورة ثابتة وصحيحة، وأنّ ثناء الله تعالى على نبيه ورسوله محمد ﷺ، ورَفْعَهُ له ذِكْرَهُ لا يَصِلُ أحد إلى معرفة تفاصيله، ولا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢٠ / ١٠٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٦ / ٤٨٧.

(٣) انظر: أضواء البيان، للشنقيطي: ٦/ ٧٩، وتفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور: ٣٠/ ٤١١.



إلى الإحاطة بمعانيه إلاّ الله تعالى وحده الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا.

وقد تبيَّن بما مضى ذكره من الأدلة وما يُماثلها من القرآن الكريم أن ثناء الله تعالى على نبيه ورسوله محمد ﷺ ورَفْعَه له ذِكْرَهُ برهان شرعيٌّ قاطع للدفاع عن النبي محمد ﷺ، فإنَّ الله ﷻ قد دلَّ وأبرز بثنائه عليه ورَفْعِه له ذِكْرَه أنَّه تعالى محبٌّ لذلك مُحِبٌّ لمن يُوافقه فيه، وأنَّه تعالى كارِهٌ لضدِّ ذلك، وكاره لِمن يُخالفه، فيأتي بضدِّ هذا الثناء، والله الهادي إلى سواء السبيل.

* * *

المطلب الثاني

الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان نفي الله تعالى عنه التُّهَم والافتراءات

التُّهَم والافتراءات من أساليب الحرب الكلاميَّة التي يستخدمها بعض الناس؛ لتزييف الحقائق، وتزوير الأباطيل، كما هو معروف في كل زمان، وفي كل مكان.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أثنى على نبيه ورسوله محمد ﷺ، ورَفَعَ له ذِكْرَه؛ لكي يعرف الناس قَدْرَه ومنزلته عند الله تعالى؛ فيؤمنوا به، ويتبعوا ما جاءهم به من النُّبُوَّةِ الخاتِمة والرسالة الكاملة – كما سبق بيانه –، فإن أصحاب التُّهَم والافتراءات على خطٍّ مُعارض لذلك؛ لأنهم يريدون صَرْفَ الناس عن معرفة قَدْرِ هذا النبي الكريم المَبعوث رحمة للعالمين، وعن الإيمان به، واتِّباع ما جاء به من عقيدة راسخة، وشريعة عادلة، ومنهج حياة كامل، وذلك بما يَتَّهِمونه به من المَعايب، وبما يفترونه عليه من الأكاذيب.

وهذه التُّهَم والافتراءات ليست وليدة هذا العصر الذي نعيش فيه، وليست كذلك جديدة في حق هذا النبي الخاتم للنبيين – عليه الصلاة والسلام –، فقد ابْتُلِيَ بذلك من قَبْلَه من الأنبياء والرُّسُل عليهم السلام، كما قال الله عز وجل: ﴿ **مَّا يُقَالُ لَكَ**



﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (فصلت:٤٣)، وكما سبق بيانه في المُقدمة الرابعة من هذا البحث.

وبما أنَّ التُّهَم والافتراءات تستولي أحيانا على العقول الضعيفة، فتحْجُبُها عن النور المُبين وعن النظر الصحيح، وتغشاها بالظُّنون الكاذبة، والاعتقادات الفاسدة والأفكار الباغية، كان نفي هذه التُّهَم والافتراءات وردُّها على أصحابها، وبيان سوء مَغَبَّتها ضروريًّا لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، و﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال:٤٢).

وقد ورد في نفي الله تعالى التهم والافتراءات عن نبيِّه ورسوله محمد ﷺ آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها:

أولا – نفي تُهَم الذين كفروا من مُشركي العرب، وافتراءاتهم:

فقد كان مُشركو العرب أوَّل من واجههم النبي محمد ﷺ بدعوته؛ لأنَّهم قومه وعشيرته الأقربون، وإن كانت دعوته – عليه الصلاة والسلام – للناس كافة عربهم وعجمهم.

ولقد قابل كثير من العرب دعوته ﷺ بالردِّ والتكذيب، واتَّهَموه بالمَعايب، وافتروا عليه الأكاذيب، فقالوا:

١ – إنَّ النبي ﷺ افترى الكذب في دعوى النبوة، وإنَّ ما جاء به من

الأخبار ما هي إلا أساطير الأولين.

وقد حكى الله تعالى ذلك، ونفاه في قوله ﷻ: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ (الفرقان: ٤-٦).

والنَّفْي هنا اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿ **فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا** ﴾ يعني: أن قائلي هذه المَقالة قد جاؤُوا بظلم وزور، أي: بشرك وكذب بنسبتهم كلام الله تعالى الذي جاء به نبيه ﷺ إلى الإفك والافتراء[1].

وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ** ﴾ ...الآية، أي: أنزل القرآنَ اللهُ الذي أحاط علمه بما في السموات والأرض من الغيب والشهادة والسرِّ والجهر، فيمتنع أن يَتَقَوَّلَ عليه مَخلوق هذا القرآن، ويزعم أنَّ الله قال له ذلك، والله يعلم كل شيء، ومع ذلك فهو يُؤَيِّده ويَنْصُرُه، بل لا بدّ أن يُظْهِرَ كَذِبَه، وينتقم منه[2]، كما قال سبحانه: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ** ﴾ (الحاقة: ٤٤ - ٤٦).

---

(١) انظر: تفسير البغوي، تحقيق محمد النمر وآخرين: ٣/ ٣٢٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي / ص ٦٧٤.



٢- وقالوا: إنه ﷺ مجنون، أو به جِنَّة.

قال الله تعالى: ﴿ **وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** ﴾ (الحجر:٦)، وقال تعالى: ﴿ **وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (القلم:٥١ -٥٢).

وقال ﷻ: ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ** ﴾ (المؤمنون:٦٨ - ٧٠).

وقول الله تعالى هنا: ﴿ **بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ** ﴾ يتَضمَّن الردَّ عليهم في هذه المَقالات، ومعناه: أنّ النبي ﷺ قد جاء بالأمر الثابت الذي هو صِدْق وعدلٌ لا اختلاف فيه، ولا تناقُض، فكيف يكون من جاء به به جنة؟! وهلا يكون إلا في أعلى دَرَجِ الكمال من العلم، والعقل، ومَكارم الأخلاق!، ولكن الواقع والحقيقة التي منعتهم من الإيمان أنه ﷺ ﴿ **بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ** ﴾، فكونه أتَى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق، واتِّهام الرسول ﷺ بالجنون، وهم في حالهم هذا كما قال الله تعالى: ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ (الأنعام:٣٣)[1].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن / ص ٦٤٧.

٣- وقالوا: إنه ﷺ ساحر، وما جاء به سِحْرٌ.

قال الله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (يونس:٢).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأحقاف:٧).

وقد بيَّن الله تعالى أنَّ هذا القول هو مَحْضُ عِنادٍ، ومُكابرة من الكفار، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام:٧).

فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ عن شِدَّة عناد الكافرين، وأنه ليس تكـذيبهم لقصور فيما جاءهم به، ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلـك ظلـم وبغـي لا حيلـة لكم فيه، وأنّه تعالى لَوْ نزَّل كِتَابًا من السماء فِي قِرْطَاسٍ، فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ وتيقَّنوه، لَمَا آمنوا به، بل لقالوا – ظلما وعُلُوًّا –: إنْ هَذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ، فأيُّ بَيِّنَة أعظم من هذه البيِّنة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المَحسوس الذي لا يُمْكِن مَـن له أدنى مُسْكَة مِن عقل دَفْعُهُ![1].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن / ص ٢٦٧.



٤- وقالوا أيضا: إنّه ﷺ كاهن، وإنّه شاعر.

وقد نفى الله تعالى ذلك كله، فقال سبحانه: ﴿ **فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ** ﴾ (الطور:٢٩ -٣١).

وقال تعالى: ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (الحاقة:٤١ – ٤٣).

وقال سبحانه: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ (يس:٦٩ - ٧٠).

وبالجملة: فإنّ الله تعالى قد بيَّن بآياته الكريمات أنَّ هذه الأقوال الصادرة من الكفار - لسخافتها وكَذِبها وبَهْتها منهم - كُلّ أحد يعلم بطلانها، وبراءة رسول الله ﷺ منها، فإنه قد عُلِمَ بالتواتُر وبالضرورة أن محمدًا رسول الله ﷺ لم يكن بِمُتَّهَمٍ بشيء مما اتَّهَمُوه به وافْتَرَوْهُ عليه، لا في أوَّل عُمُرِه ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أوَّل مولده إلى أن بعثه الله نَحْوًا من أربعين سنة، وهم يعرفون مَدخله ومَخرجه، وصِدْقه وبِرَّه وأمانته، ونزاهته من الكَذِب والفُجور، وسائر الأخلاق الرَّذِيلة، حتى إنهم لم يكونوا يُسَمُّونَهُ في صِغَرِه إلى أن بُعِث إلاّ الأمين؛ لِمَا يعلمون من صدقه وبِرِّه، فلمَّا أكرمه الله تعالى بما أكرمه به من النُّبُوَّة

نصبوا له العداوة، وَرَمَوْهُ بهذه الأقوال التي يَعْلَمُ كل عاقل براءته منها، وحاروا ماذا يقذفونه به، فتارةً من إفكهم يقولون: كذَّاب. وتارة يقولون: مجنون. وتارة يقولون: ساحر. وتارة يقولون: كاهن. وتارة يقولون: شاعر. قال الله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾. (الإسراء:٤٨)، و(الفرقان:٩)[1].

ثانياً: نفي تهم الذين كفروا من أهل الكتاب وافتراءاتهم:

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى شأنهم يَخْتَلِفُ عن الذين كفروا من مُشركِي العرب وغيرهم، فإنّ المُشركين ليسوا أهل علم، وليسوا على دين سماوِيٍّ، بل هم أهل جهل يدينون بالتقليد للآباء والأجداد والأكابر.

أمَّا أهل الكتاب فهم في الأصل على دين سماويٍّ، وهم أهل علم من الكُتُبِ السماوِيَّة؛ لهذا كان اللائق بهم أن يكونوا أوَّل الناس إيمانًا بنبِيِّ الله ورسوله محمد ﷺ؛ لِمَا ثبت من ذِكْرِه والبشارة به في الكتب السماويَّة لديهم من التوراة والإنجيل، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف:١٥٧).

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٥٨٣.



وقد أكّد الله تعالى عليهم هذا الأمر، فقال سبحانه: ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ (البقرة:٤١). ومع هذا كله فإنّ كثيرًا من أهل الكتاب لم يقدروا الله تعالى حقَّ قَدْرِه، بل كما قال الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (آل عمران:١١٠).

وقال تعالى أيضا: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة:٦٨).

ولقد أكثر الله سبحانه من الذمِّ واللعن لأهل الكتاب في القرآن الكريم على سوء مَسلكهم مع النبي محمد الذي عرفوه كما يعرِف أحدُهم ابنه، وبيَّنَ ﷻ أنَّ الحامل لهم على هذا المَسلك السيئ هو البَغْيُ والحسد. قال ﷻ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (البقرة:٨٩ – ٩٠).

وقال جلّ شأنه: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ

﴿... كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ (البقرة:١٠٩).

وبهذا يُعْلَمُ أنَّ جميع التُّهَم والافتراءات التي يُروِّجها أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأشباههم في القديم والحديث نابعة من هذه الآفات النفسيَّة الخبيثة التي أَرْدَتْهُمْ، فأصبحوا خاسرين.

وإنَّ فيما تقدَّم بيانه من نفي الله تعالى التُّهَم والافتراءات عن نبيِّه ورسوله محمد ﷺ لبُرهانًا شرعيًّا للدفاع عن هذا النبيِّ الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمُّ السلام، وهو برهان جليٌّ مُرْشِدٌ لكل مؤمن للعناية بنفي التُّهم والافتراءات عن نبيِّ الله ورسوله محمد ﷺ.

* * *



المطلب الثالث

الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان تحريم إيذائه بقول أو فعل

إذا كان الله ﷻ قد نفى في كتابه العزيز التُّهَم والافتراءات عن نبيِّه ورسوله محمد ﷺ وبرّأه منها، فإنّه ﷻ قد سدَّ كُلَّ طريق وكل وسيلة تُؤَدِّي إلى الوقوع في عِرْض النبي ﷺ، أو الطعن في نُبُوَّتِه ورسالته، أو في شيء معلوم بالضرورة من ذاته أو دينه، وذلك بتحريم إيذائه – عليه الصلاة والسلام – بقول أو فعل.

قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ (الأحزاب:٥٧).

فهذه الآية الكريمة دالة على أنّ إيذاء رسول الله ﷺ حرام لا يجوز بطريق لا بقول ولا بفعل، بل هي دالَّة على أن مُؤْذِي رسول الله ﷺ كافر في الدنيا، مُتَوَعَّد بالعذاب المُهين في الآخرة، ودلالة الآية على هذه الأحكام معلومة بوجوه[1]:

أحدها: أن الله تعالى قَرَن إيذاء رسوله ﷺ بإيذائه سبحانه، كما قرن

(١) انظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية، تحقيق محمد محيي الدين / ص ٤٠ – ٤١.

طاعته بطاعته في مواضع مُتعدِّدة من القرآن الكريم، وذلك بيان لتلازم الأمرين، وأنَّ جهة حُرْمَة الله تعالى وحُرْمة رسوله ﷺ جهة واحدة، فمن آذَى رسول الله فقد آذَى الله سبحانه، ومن أطاعه فقد أطاع الله؛ لأنَّ الأمة لا يَصِلُون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة الرسول ﷺ ليس لأحد منهم طريق غيره ولا سَبَبٌ سواه، وقد أقامه الله تعالى مَقام نفسه في أمره ونهيه وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يُفَرِّق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور.

الوجه الثاني: أن الله تعالى فرَّق بَيْن إيذاء الله ورسوله، وبين إيذاء المؤمنين والمؤمنات، حيثُ قال تعالى – عقب الآية السابقة -: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب:٥٨).

فجعل على هذا أنّه قد احتمل بهتانًا مُبِينًا، وجعل على ذلك اللعنة في الدنيا والآخرة، وأعدَّ له العذاب المُهين، ومعلوم أن أذَى المُؤمنين والمُؤمنات قد يكون من كبائر الإثم، وليس فوق ذلك إلاّ الكفر.

الوجه الثالث: أنّ الآية نصَّت على اللَّعْن في الدنيا والآخرة والعذاب المُهين، واللَّعْنُ: هو الإبعاد عن الرحمة، ومن طَرَدَهُ الله عن رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلاّ كافرًا، فإنّ المُؤمن لا بدّ أن يقرب إلى رحمة الله بعض الأوقات.



وهذا كما قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة:٦١).

وإذا تقرَّر أن الذي يُؤْذِي رسول ﷺ يكون كافرًا مُتوَعَّدًا بالعذاب المُهين، فينبغي أن يُعْلَمَ أنّ الإيذاء المَذكور في الآية ليس مخصوصًا بشيء مُعَيَّن. قال الحافظ ابن كثير: «والظاهر أنَّ الآية عامَّة في كلّ من آذاه بشيء»[1]، أي: بشيء ولو كان صغيرًا.

وليس كذلك مخصوصًا بزمن مُعيَّن، فإنَّ حُرْمَة رسول الله ﷺ باقية وعامَّة في الزمان والمكان في حياته وبعد مماته فِدَاه أبي وأمي ﷺ.

وبهذا يَتبَيَّنُ أن تحريم الله تعالى إيذاء نبيِّه ورسوله محمد ﷺ برهان شرعيٌّ للدفاع عنه عليه الصلاة والسلام من كلِّ أذيَّة قوليَّة أو فعليَّة، كبيرة أو صغيرة، له ﷺ، أو لدينه، أو ما يَعُود إليه بالأذَى، والعياذ بالله.

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢٢٩.

المطلب الرابع

الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان فرض الله تعالى تعزيزه وتوقيره على أمته

هذا المَطلب تتويج لنفي الله تعالى التُّهَم والافتراءات عن النبي محمد ﷺ، ولتحريمه تعالى إيذاءه بقول أو فعل، فإنَّ النَّفْيَ والتحريم أمران سلبيَّان غايتهما الكفُّ والاِنْزِجَارُ، ولكن الله تعالى أراد بإرادته الشرعيَّة أن يُحَقَّقَ ذلك بأمر إيجابي عملي، ففرض على الناس التعزيز والتوقير لنبيه ورسوله محمد ﷺ.

والدليل قوله ﷻ: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾ (الفتح:٨ -٩).

حيثُ نوَّه الله تعالى بإرسال نبيه محمد شاهدًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا، ورتَّب على ذلك قوله: ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾.

قال العلامة السعدي: «فذَكَرَ الله في هذه الآية الحَقَّ المُشترك بين الله وبين رسوله – وهو الإيمان بهما –، والمُخْتَصَّ بالرسول – وهو التعزير والتوقير –، والمُختص بالله – وهو التسبيح له والتقديس بصلاة أو غيرها –» اهـ[1].

فالتعزير والتوقير حق مَفروضٌ لرسول الله ﷺ على أمته كما كانت له المِنَّة

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / ص ٩٤٢.



العظيمة عليهم برسالته.

وقد بيَّن إمام المُفسِّرين ابن جرير الطبري أنَّ التعزير: هو التقوية بالنصرة والمَعُونة. وأنّ التوقير: هو التعظيم، والإجلال، والتفخيم [1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (التعزير: اسم جامع لنَصْرِه، وتأييده، ومنعه من كلِّ ما يُؤْذِيه. والتَّوْقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يُعَامَلَ من التشريف، والتكريم، والتعظيم بما يَصُونه عن كل ما يُخْرِجُهُ عن حدِّ الوَقار) اهـ[2].

ومن فَهِمَ هذه المعاني المذكورة أدرك أنها لا تتحَقَّقُ إلا بأمور إيجابيَّة ظاهرة عيانا يُمْكِنُ اعتبارها آدابًا مرعيَّةً في حق رسول الله ﷺ، ومن تفاصيل ذلك ما أرشد الله تعالى المُؤمنين إلى مراعاته تأدُّبًا واحترامًا وتقديرًا لنبي الله ورسوله محمد ﷺ مما يأتي بيانه:

أولاً – قول الله تعالى: ﴿**لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا**﴾ (النور:٦٣).

وهذا يُحْتَمَلُ أنه تعالى نَهَى الأمة أن يجعلوا دعاءهم للرسول ﷺ كدعاء

(١) انظر: تفسير الطبري ٢١/ ٢٥٢ -٢٥٣.

(٢) الصارم المسلول / ص ٤٢٢.

بعضهم بعضًا، فلا يسمُّوه – إذا خاطبوه – باسمه: يا محمد، يا أبا القاسم، يا ابن عبد الله، كما يُسَمِّي بعضهم بعضًا، بل من شرَفه وفضْله وتَميُّزه عن غيره أن يدعُوهُ: يا نبي الله، يا رسول الله[1].

ويُحْتَمَلُ أنه تعالى نهى الأمة أن يجعلوا دعاء الرسول إياهم كدعاء بعضهم بعضًا، فلا يُؤَخِّروا الإجابة – إذا دعاهم – بالاعتذارات التي يُؤَخِّرُ بها بعضهم إجابة بعض، بل يبادرون إليه إذا دعاهم بسرعة الإجابة، ومعالجة الطاعة[2].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ** ﴾ (الحجرات:٢).

وهذا أيضًا أدب مع الرسول ﷺ في الخطاب، ونَهْيٌ للمؤمنين عن رفع أصواتهم بين يديه فوق صوته، وعن الجَهْر له بالكلام كما يجهر أحدهم لِمُخاطِبه ممن عداه، بل يكون كلامهم معه ﷺ بسكينة ولين وغضِّ صوت؛ لأنَّ الرفع والجهر قد يُفضي إلى حُبوط عمل صاحبه وهو لا يشعر، وذلك لِما قد يشتمل رفعُ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٤/ ٥٧٨.

(٢) انظر: جلاء الأفهام، لابن القيم / ص ٥٥٠ – ٥٥١، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي / ص ٦٧٢.



الصوت والجهر بالقول على أذى للنبي ﷺ، واستخفاف به وإن لم يقصد صاحبه ذلك[1].

ثالثاً – قوله تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (البقرة:١٠٤).

وهذا نَهْيٌ للمؤمنين عن التشبُّه بمن يُعَرِّضُون بالنبي ﷺ، وذلك أن اليهود كانوا يقولون: راعِنا يا محمد، أي: أَرْعِنَا سمعَك، واسمع منّا، ويُعَرِّضُون بالكلمة، يريدون الرُّعونة – وهي خِفَّةُ العقل –، فنهى الله تعالى المؤمنين عن التشبُّه بهم، وقطع الذريعة بنهي المُؤمنين عنها؛ لئلا يتوصَّلَ بها الكافر أو المُنافق إلى سبِّه والاستهزاء به ﷺ[2].

وقيل: بل لِما فيها من مُشاركة اللفظ؛ لأنها عند اليهود بمعنى: اسمع لا سمعتَ.

وقيل: بل لِما فيها من قلَّة الأدب، وعدم توقير النبي عليه الصلاة والسلام؛ لأنها في لُغة الأنصار بمعنى: ارْعَنا نَرْعَكَ، فنُهُوا عن ذلك، إذ مضمونه أنهم لا

---

(١) انظر: الصارم المسلول / ص ٥٤ –٥٦، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي / ص ٩٥٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ١/ ٣٢٧.

يَرْعُونه إلا برعايته لهم، وهو ﷺ واجب الرعاية بكلِّ حال [1]، ولهذا قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا ﴾ فإنها كافية يحصل بها المَقصود من غير مَحذور. ثم قال: ﴿ وَٱسۡمَعُواْۗ ﴾ ولم يذكر المَسموع؛ ليعُمَّ ما أُمِروا باستماعه من القرآن والحكمة لفظًا ومعنًى واستجابةً، ففيه الأدب والطاعة، ثم توعَّد الكافرين بالعذاب المُؤلِم [2]، نعوذ بالله من ذلك.

وكل هذه الإرشادات الواردة في حق النبي ﷺ من تمام تعزيره وتوقيره وتعظيمه، والقصد من ذلك كله أن تَبْقَى له ﷺ منزلة عُليا في نفوس أمته يَسْتَشْعِرون بها توقير كلِّ توجيه صادر منه عليه الصلاة والسلام.

ولهذا كان تعزيره وتوقيره عليه الصلاة والسلام لازمًا له بعد موته كما كان حال حياته، ومما يدلُّ على ذلك أن الله تعالى حرَّم على الأمة أن يُؤْذُوه بما هو مُباح أن يعامل به بعضهم بعضًا تمييزًا له، مثل نكاح أزواجه بعد موته، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٣)، كما أوجب الله تعالى على الأُمَّة من أجله ﷺ احترام أزواجه، وجعلهُنَّ أُمَّهات في التحريم والاحترام، قال تعالى:

(١) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض اليحصبي: ٢/ ٢١٧.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي / ٥٥.



﴿وَأَزْوَاجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦)، وكذلك احترام آل بيته، وصحابته الأبرار.

وبهذا كله يتبيَّن أنَّ فرض الله تعالى تعزير نبيِّه ﷺ وتوقيره على أُمَّتِه برهان شرعيٌّ قاطع لوجوب الدِّفاع عن النبيِّ ﷺ، فلا يَتِمُّ التعزير والتوقير له عليه الصلاة والسلام إلا بالدِّفاع عنه ﷺ، كما هو ظاهر، وبالله التوفيق.

***

المطلب الخامس

الدِّفاع عن النبي ﷺ

ببرهان فرض الله تعالى مَحبَّته وجعل ذلك من لوازم الإيمان به

المَحبَّة عامل قويٌّ من عوامل حركة الإنسان في الحياة، فالإنسان بطَبْعِه يميل إلى ما يحبه وينجذِب إليه ويُدافع عنه إن بحقٍّ وإن بباطل، كما أنه بطعبه ينأى عمَّا يكرهه وينفر منه.

ولهذا كانت محَبَّة رسول الله ﷺ أصلًا عظيمًا من أصول الدين وفريضة لازمة من فرائضه، لقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤).

قال القاضي عياض اليَحْصُبِي – تعليقًا على هذه الآية –: «فكفى بهذا حضًّا وتنبيهًا ودلالة وحُجَّةً على إلزام محبَّتِه، ووجوب فرضها، وعِظَم خطَرها، واستحقاقه لها ﷺ، إذ قرَّع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ﴾ ثم فسقهم بتمام



الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضلَّ ولم يهدِه الله»[1].

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[2].

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (فذكر في هذا الحديث أنواع المَحبَّة الثلاثة، فإن المَحبَّة: إما مَحبَّة إجلال وتعظيم، كمحبَّة الوالد. وإما مَحبَّة تحنُّن وودٍّ ولطف، كمَحبَّة الولد. وإما مَحبَّة لأجل الإحسان وصفات الكمال، كمحبَّة الناس بعضهم بعضًا. ولا يؤمن العبد حتى يكون حُبُّ الرسول ﷺ عنده أشد من هذه المَحابِّ كلها) اهـ[3].

وإذا ثبت بهذه الأدلَّة أنَّ الله تعالى فرض على عباده مَحبَّة نبيه ورسوله محمد ﷺ، بل وتقديم محبَّته على محبَّة كل شيء من مخلوقاته، وأنَّ محبَّته ﷺ على هذه الكيفيَّة من لوازم الإيمان به، فإنما استحقَّ – عليه الصلاة والسلام – هذه الأحبيَّة؛ لكونه أكرم الخَلْق على ربِّه ﷻ، وأفضلهم صفةً وحالًا، وأعظمهم مِنَّة عليهم وإحسانًا، ولذلك أيضًا استحق أعظم الثناء من الله ﷻ، والتعزير

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٢٣.

(٢) صحيح البخاري، برقم (١٥)، وصحيح مسلم، برقم (١٦٨).

(٣) جلاء الأفهام / ص ٥٥٣.

والتوقير من أُمَّته، كما سبق بيان ذلك كله.

ثم إذا كان هـذا شـأن محبَّتـه ﷺ في الشَّرْع بحسـب الأدِلَّـة مـن الكتـاب والسُّنَّة، فمعلوم أن المَحبَّة عمل قلبيٍّ أساسها في القلب، ولها علامات ومظاهر دالَّة عليها وشاهدة لها. ومعلوم أنَّ الدِّفاع عن شيء دليل على محبَّته، وترك الـدِّفاع عن شيء دليل على عدم محبَّته أو على ضعف محبَّته، فتبين أنَّ فـرض الله تعـالى محبَّـة نبيِّه ورسوله محمد ﷺ برهان شرعيٌّ للـدفاع عنـه ﷺ، وأنَّ تـرك الـدِّفاع عنـه ﷺ مُنافٍ لِمحبَّته الواجبة، فنسأل الله تعالى أن يرزُقنا حُبَّه وحبَّ رسوله ﷺ.

***



المطلب السادس

الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان فرض الله تعالى على أمته النصيحة له

النصيحة – من حيث اللغة –: اسمٌ للنصح الذي هو مصدر للفعل (نصح).

وقال بعض أهل العلم – في بيان معناها –: «النصيحة: كلمة جامعة تتضمَّن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلًا»[1].

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر النصيحة لرسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿ **لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (التوبة:٩١).

فجعل الله تعالى النصيحة له ولرسوله ﷺ شرطًا لرفع الحَرَج عن أهل الأعذار، فدلَّ ذلك على وجوب النصيحة لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام في كلِّ حال.

ويُؤيِّد هذا الحكم ما ثبت في الحديث عن النبي ﷺ قال: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناؤوط: ١/ ٢٢٢.

قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «للهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَامَّتِهِمْ»[1].

فالنصيحة لرسول الله ﷺ لازمة لقيام الدين وصِحَّتِهِ، كالنصيحة لله تعالى، ولا دين إلاّ مع هذه النصيحة. وقد ذكر أهل العلم أنَّ النُّصُحَ لرسول الله ﷺ يَقْتَضِي نصحين: نُصْحًا في حياته، ونُصْحًا بعد وفاته ﷺ.

ففي حياته عليه الصلاة والسلام تكون النصيحة له ببذل الجهد في السمع والطاعة له، وبذل النفس والمَال في نُصْرَتِه والمُحاماة عنه، مع التزام التوقير والإجلال له ﷺ.

وأما بعد وفاته ﷺ فتكون النصيحة له بتجريد مُتابعته، والعناية بسُنَنه وآدابه، وتعظيم دينه وشرعه، ومُجانبة من رَغِبَ عن سُنَّتِهِ وانحرف عنها، ونحو ذلك من المَعاني التي قد يُقَصِّر عنها التعبير[2].

وقد اشتملت هذه المَعاني على معنى الدِّفاع عن النبي ﷺ حيًّا وميِّتًا، فعلم بذلك أنَّ فرض الله تعالى النصيحة لنبيه ورسوله محمد ﷺ برهان شرعيٌّ للدفاع عنه، وأنَّ من دافع عن النبي ﷺ فقد نصح لله ولرسوله ﷺ، ومن ترك الدِّفاع عنه فقد خالف مُقتضى النصيحة، والله المُستعان.

---

(١) صحيح مسلم، برقم (١٩٦).

(٢) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض: ٢/ ٢٢١.

المطلب السابع

الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان فرض الله تعالى الصلاة والتسليم عليه

جاء الأمر بالصلاة والتسليم على النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٦).

ففي هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى المؤمنين بالصلاة والتسليم على نبيه ورسوله محمد ﷺ بعد أن أخبر أنّ الله وملائكته يُصلُّون عليه.

وفي بيان معنى هذه الصلاة قال الإمام البخاري: «قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند المَلائكة. وصلاة المَلائكة: الدعاء. وقال ابن عباس: **(يصلون) يَبْرُكُون**»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الصلاة: تتضمَّن ثناء الله عليه، ودعاء الخير له، وقربته منه ورحمته له. والسلام عليه: يتضمَّن سلامته من كل آفة، فقد جمعت الصلاة عليه والتسليم جميع الخيرات»[2].

---

(١) صحيح البخاري / كتاب التفسير / سورة الأحزاب / باب رقم (١٠).

(٢) الصارم المسلول / ص ٤٢٠.

وقال الحافظ ابن كثير: «والمَقصود من هذه الآيـة: أن الله ﷻ أخـبر عبـاده بمنزلة عبده ونبيِّه عنده في المَلأ الأعلى بأنه يُثْنِي عليه عند الملائكـة المُقـرَّبين، وأن المَلائكة تُصَلِّي عليه. ثم أمر تعالى أهل العـالم السـفلي بالصـلاة والتسـليم عليـه؛ ليجتمع الثناء عليه من أهل العالَمَيْنِ: العُلْوِيِّ والسُّفْلِيِّ جميعًا»[1].

وأشار الإمام ابن قيم الجوزيـة – في كـلام لـه – إلى أنَّ معنـى أمـر الله تعـالى بالصلاة على النبيِّ ﷺ عقيب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه هو: «أنه إذا كان الله وملائكته يُصَلُّون على رسوله، فصلُّوا أنتم عليه فـأنتم أحـقُّ بـأن تُصَـلُّوا عليـه وتُسَلِّموا تسليمًا لِما نالكم ببركة رسالته، ويُمْنِ سِفارته من شَرف الدنيا والآخرة»[2].

وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنَّ الصلاة والتسليم على النبي ﷺ فرض، لأمر الله تعالى بها، والأمر يَقْتَضِي الوجوب، ولكن لَمَّا كان الأمر في الآيـة مُطْلَقًـا غير مُقَيَّد اختلفوا في محل هذا الفرض وفي حدِّه، ولذلك كله مباحث طويلة ليس هذا موضع ذكرها.

وبالجُمْلة فالصلاة والتسليم على النبي ﷺ من سُـنَن الإسـلام الفاضـلة وشِعار أهله الظاهر، وهي مِمَّا اختص بـه نبينـا محمـد ﷺ تفضـيلا لـه وتمييـزًا

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢٠٩.

(٢) جلاء الأفهام / ص ٢٦٢.



وإظهارًا لشرفه وحُرْمَته.

ومن فَهِمَ معنى الصلاة والتسليم على النبي ﷺ بنحو ما سبق بيانه علم أنَّ فرض الله تعالى لذلك برهان شرعيٌّ للدفاع عن النبي ﷺ، فإنَّ هذه الصلاة والتسليم تضمَّنت ثناء المُصَلِّي عليه وتبرئته من كل آفة والإشارة بـذِكْرِ شَرَفه وفضله، وإرادة ذلك من الله تعالى وسؤاله أن يفعل ذلك بنبيِّه ورسوله محمد ﷺ، فما أَحْسَنه من دفاع، وما أبْيَنَهُ من برهان.

ولهذا يكون من اشتغل بالصلاة والتسليم على النبي ﷺ حائزًا لأحسن الجزاء وأفضل الثواب، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا**»[1].

ومن ترك الصلاة على النبي ﷺ كان جافيًا خائبًا؛ لقول رسول الله ﷺ: «**رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»[2]، ولقوله أيضا – عليه الصلاة والسلام –: «**البَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»[3].

اللهم صلّ وسلم على النبي محمد وآله وصحبه وصالح المؤمنين.

---

(١) صحيح مسلم، برقم (١).

(٢) سنن الترمذي، برقم (٣٥٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٥١٠).

(٣) سنن الترمذي، برقم (٣٥٤٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٨٧٨).

المطلب الثامن

الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان فرض الله تعالى الجهاد في سبيل الله

الجِهاد – من حيث المَعْنَى اللُّغوِيُّ -: هـو بـذل الإنسـان جُهْـدَهُ – طاقتـه ووسعه – في أمر من الأمور[1].

وأما المعني الشرعيُّ للجهـاد: فهـو بـذل المُسـلم جُهْـدَه ووُسْـعَه وطاقتـه وسلوكه كل سبب ووسيلة؛ لتحصيل ما يُحِبُّـه الله تعـالى ويرضـاه مـن الأفعـال والأقوال والاعتقادات، ولـدفع مـا يَكْرَهُـهُ الله تعـالى، ويُبْغِضُـهُ مـن الأفعـال، والأقوال، والاعتقادات[2].

وقد دخل في هذا المعنى الجامع أنواع الجِهـاد مـن حيـث مُتَعَلَّقُـهُ، وهـي: جِهاد النفس، وجِهاد الشيطان، وجِهاد الكفار والمُنافقين، وجِهاد أرباب الظُّلْـم والبِدَع والمُنْكَرَات[3]. وأنواعه من حيث وسيلته، وهي: الجِهاد بالنفس – باليد أو اللسان -، والجِهاد بالمال، والجِهاد بالرأي والقوَّة المَعنويَّة، والجِهاد بالقلب[4].

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني / ١٠١.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيح الإسلام ابن تيمية: ١٠ / ١٩١ – ١٩٣.

(٣) انظر: زاد المعاد، لابن قيم الجوزية، تحقيق الأرنؤوط: ٣/ ٩– ١٠.

(٤) انظر: المصدر السابق.



ولهذا قُيِّد الجهاد في الشرع بأنه في سبيل الله؛ لِيَدُلَّ على هذا المَعنى بمُتعلَّقاته ووسائله، ولبيان أنَّ مقصوده أن تكون كلمة الله هي العُليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يظهر دين الله على الدين كلّه[1].

وعلى هذه الكيفيَّة فرض الله تعالى الجهاد في سبيله، كما قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة :٣٥).

وقال سبحانه: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة:٤١).

وقال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾ (الحج:٧٨).

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَأَنْفُسِكُمْ، وَأَلْسِنَتِكُمْ»[2].

وفي الحديث أيضا: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً،

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلامابن تيمية: ٢٨ / ٢٣.

(٢) سنن أبي داود، برقم (٢٥٠٤)، وسنن النسائي، برقم (٣٠٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع،برقم (٣٠٩٠)

وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»(1).

وفي القرآن الكريم والأحاديث الشريفة أدِلَّة كثيرة في الحضِّ على الجهاد في سبيل الله، والترغيب فيه، والإخبار عن فضله وفضل أهله، وما لهم في الدنيا من العِزَّة والكرامة، وفي الآخرة من الدَّرَجات في النعيم المُقيم.

فيتبيَّن بهذا عِظَمُ شأن الجهاد في سبيل الله، وأنَّه من أهم الفرائض الدينيَّة، ومن أعظم الشعائر الإسلاميَّة، وأن حُكْمَه في الشرع يتنوَّع بالنظر إلى أنواعه، وبالنظر إلى أحوال المُكَلَّفين، فلا بد أن يُجاهِدَ المُسلمون في سبيل الله تعالى كلٌّ بحسب حاله وعلى قدر طاقته، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: **«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»**(2).

ويتبيَّن بما تقدَّم أيضًا أن فرض الله تعالى الجهاد في سبيله برهان شرعيٌّ للدفاع عن النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الدِّفاع عن أعلام الدين وحرماته وشعائره هو شَطْر الجهاد في سبيل الله، وهو جزء مفهومه الشرعيِّ، كما هو معلوم لمن تأمَّل.

فالدِّفاع عن النبي محمد ﷺ، وتطهير الأرض – بحسب الإمكان – من

---

(1) صحيح البخاري، برقم (١٢٣)، وصحيح مسلم، برقم (٤٩١٩).

(2) صحيح مسلم، برقم (٤٩٣١).



مظاهر الطَّعْن فيه وفي نُبُوَّتِه ورسالته لا شكَّ أنه جهاد واجب على الأمة الإسلاميَّة في كل زمان وفي كل مكان؛ لأنَّه من تمام ظهور دين الله وعُلُوِّ كلمة الله وكون الدين كله لله، فحيثما ظهر الطَّعْنُ فيه وفي نُبُوَّتِه ورسالته ولم يُنْتَقَمْ مِمَّن فعل ذلك لم يكن الدين ظاهرًا، ولا كلمة الله عالية[1]؛ ولهذا جاء في كتاب الله تعالى الأمر الصريح بقتال من يطعَنُ في دين المُسلمين حتى ينتهيَ عن ذلك. قال الله تعالى: ﴿ **وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ** ﴾ (التوبة:١٢).

وهذا الجهاد الدِّفاعي عن الإسلام وعن نبيِّ الإسلام صلوات الله عليه وتسليماته كما يكون باليد والنفس، يكون بالقول واللسان، وهو الجهاد بالحُجَّة والبيان، ويكون كذلك بالمال، وبكل وسيلة صحيحة ماديَّة أو معنويَّة، ولكل من ذلك مقامه وموضعه، ﴿ **وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾ (المنافقون:٨).

***

(١) انظر: الصارم المسلول، لابن تيمية / ص ٢٩٨.

المطلب التاسع

الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان تحدِّي مُعارضيه وعجزهم على مرِّ العصور

التحدِّي: هو طلب المُباراة أو المُعارضة في أمر[1]. وهو هنا: تعجيز الخَلْقِ عن أن يأتوا بمثل القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيِّه ورسوله محمد ﷺ، أو يُعارضوه بوَجْهٍ[2].

وذلك أن الله ﷻ أمر نبيَّه ورسوله محمدًا ﷺ أن يتحدَّى خصومه الذين عارضوا نُبُوَّته ورسالته، والذين في شكٍّ منها، من العرب وغيرهم من الناس بأن يأتوا بمثل القرآن الكريم، أو ببعضه على مراتب ثلاث:

فقد تحدَّاهم أوَّلًا على أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾ (الطور:٣٣ -٣٤)، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾

---

(١) انظر: المعجم الوسيط / مادة (حدا).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي / ص ٣٥.



(القصص:٤٨ - ٤٩)، والضمير في قوله: (أَهْدَى مِنْهُمَا) يعني: التوراة والقرآن، «وقد عُلِمَ بالضَّرُورة لذوي الألباب أنَّ الله تعالى لم يُنْزِلْ كتابًا من السماء فيما أَنْزَلَ من الكتب المُتعدِّدَة على أنبيائه أكمل، ولا أشمل، ولا أفصح، ولا أعظم، ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، وهو القرآن. وبعدَه في الشَّرَف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام، وهو التوراة»[1].

وقال تعالى – مُقَرِّرًا إعجاز القرآن الكريم -: ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ (الإسراء:٨٨)؛ لأن القرآن الكريم كلام الله الذي له الكمال المُطلق من جميع الوجوه، ﴿ **وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ (الروم:٢٧)، فكيف يَقْدِر أن يأتِيَ بمثله المَخلوقُ الضعيف الناقص من جميع الوجوه؟!

ثم تحدَّاهم ثانيًا – عندما عجزوا أن يأتوا بكتاب مثل القرآن – أن يأتوا بعَشْر سُوَرٍ مثله، فقال تعالى: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾ (هود:١٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ٥ / ٢٥.

ثم تحدَّاهم ثالثًا – عندما عجزوا أن يأتوا بعشر سور مثل القرآن – أن يأتوا بأقل من ذلك، ولو بسُورَة واحدةٍ، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (يونس:٣٧ – ٣٨).

وهذه التحدِّيَات كلها واقعة في مكة؛ لأنَّ الآيات المَاضية مكية، وقد عجز المُعارضون أن يأتوا بشيء من ذلك.

ثم تحدَّاهم بذلك أيضًا في المدينة، فقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:٢٣).

وقوله: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ ﴾ قال الحافظ ابن كثير: «يعمُّ كُلَّ سورة في القرآن طويلة كانت أو قصيرة؛ لأنَّها نكرة في سياق الشرط فتعمُّ كما هي في سياق النفي عند المُحقِّقين من الأصوليين، كما هو مُقَرَّرٌ في موضعه، فالإعجاز حاصل في طِوال السور وقِصارها، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعًا بين الناس سلفًا وخلفًا» اهـ[١].

(١) تفسير القرآن العظيم: ١ / ١٨٨.



وهذا التحدِّي ظلَّ قائمًا في حياة رسول الله ﷺ إلى أن تـمَّ نـزول القـرآن الكريم، وانقطع الوحي بموت رسول الله ﷺ، والتحدِّي ما زال قائمًا لم ينقطع، ولم يَنْتَهِ أَمَدُهُ تصـديقًا لقـول الله تعـالى – في الآيـة المدنيـة -: ﴿**فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ**﴾، فإن (لن) هنا: لنفي التأبيد في المُستقبل، أي: ولـن تفعلـوا ذلـك أبـدًا. وهذه أيضًا مُعجزة أخرى، وهو أنَّه أخبر خبرًا جازمًا قاطعًا مُقَـدَّمًا غـير خـائف ولا مُشْـفِقٍ أنَّ هـذا القـرآن لا يُعـارَضُ بمثلـه أبـدَ الآبـدين ودهْـرَ الـداهرين، وكذلك وقع الأمر، فالبشر – من لَدُنْ نزول القرآن إلى زماننا هذا، وإلى أن تقـوم الساعة – عاجزون وفي غاية العجـز عـن مُعارضـة القـرآن، مـع كثـرة الأعـداء وجِدِّهم في ردِّ ما جاء به الرسول ﷺ، ومن طَفِقَ من بعض المكابرين يُعـارض القرآن أو يأتي بمثله ظهَر عَيُّهُ وصـار ضُـحْكَةً لأولي البصـائر والألبـاب، وأنَّـى يتأتَّى لِمَخْلُوق عاجزٍ أن يُعارض كلام ربِّ الأربـاب خـالقِ كـلِّ شيء؟! وكيـف يُشْبِهُ كلامُ الخالق كلامَ المَخلوقين؟!

ولو أنّ بشرًا جاء بما يَنْقُضُ هذا التحدِّي القاطع لانْهارت حُجِّيَّة القرآن، ولكن هذا لم يقعْ ولن يقع، وما زال القرآن الكريم يتميَّز من كلِّ كلام يقوله البشر تَمَيُّزًا واضحًا قاطعًا لا يخفى إلا على جاهل غبيٍّ، ولا يكذِّب به إلاّ كافر عنيد، كما قال الله تعالى: ﴿**بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ**

كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (يونس:٣٩).

فثبت بهذا إعجاز القرآن الكريم على أبلغ وجْهٍ وآكَدِه، وأنَّه أعظم آية على صدق النَّبيِّ ﷺ، وصدق ما جاء به، فيتَعَيَّنُ على جميع الناس الإيمان به واتِّباعه فيما جاء به، كما قال الله تعالى – عقب التحدِّي بعشر، وقوله فيه: (وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) – قال: **﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾** (هود:١٤)، لأنّه بعد وضوح الحقّ لا يبقى إلاّ التسليم، وإلاّ فالهلاك والنار، كما قال تعالى: **﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾** (البقرة:٢٤).

وثبت بهذا أنَّ تَحَدِّي مُعارِضي رسول الله ﷺ، وعجزهم عن مُعارضته على مرِّ العُصور وتعاقُب الأزمان أَبْرَزُ برهان شرعيٍّ للدفاع عن نبي الله ورسوله محمد ﷺ، فإنَّ إعجاز القرآن الكريم يدفع كُلَّ مُحاولة للطعن في نُبُوَّةِ محمد ﷺ وصِحَّة رسالته، فلا غَرْوَ أن أَقْسَمَ الله تعالى بالقرآن على رسالة النبيِّ محمَّد ﷺ في قوله ﷻ: **﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾** (يس:١ – ٤).

قال العلامة السعدي: «ولا يخفى ما بين المُقْسَم به – وهو القرآن الحكيم –



وبين المُقْسَم عليه – وهو رسالة الرسول محمد ﷺ – من الاتِّصال، وأنه لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلاّ هذا القرآن الحكيم لكفى به دليلًا وشاهدًا على رسالة محمد ﷺ، بل القرآن العظيم أقوى الأدلَّة المُتَّصلة المُستَمِرَّة على رسالة الرسول، فأدِلَّة القرآن كلُّها أدلة لرسالة محمد ﷺ». اهـ[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن / ص ٨١٥.

المطلب العاشر

الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان عصمة الله تعالى له من الناس، وكفايته من أذاهم

لقد قامتْ شواهد كثيرة، ودلَّتْ وقائع عديدة على عصمة الله تعالى لنبيِّه ورسوله محمد ﷺ من الناس، وكفايته من أذاهم، وهي تأويل وتحقيق لِمَا وعد الله تعالى به نبيَّه ﷺ في القرآن الكريم، مثل:

١ – قول الله تعالى: ﴿ **فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾ (البقرة:١٣٧).

٢ – وقوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ (المائدة:٦٧).

٣ – وقوله سبحانه: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ** ﴾ (الأنفال:٣٠).

٤ – وقوله ﷻ: ﴿ **إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ** ﴾ (الحجر:٩٥).

٥ – وقوله ﷻ: ﴿ **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ** ﴾ (الزمر:٣٦).

٦ – وقوله ﷻ: ﴿ **وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ** ﴾ (الطور:٤٨).

٧ – وقوله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ**



أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ (الطارق:١٥ – ١٧).

ونحو هذه من الآيات في القرآن الكريم، فقد عصَم الله تعالى نبيَّه ورسوله محمدا ﷺ، وكفاه من أذاهم مِصداقًا لهذه الآيات في مواقع كثيرة، ومن ذلك:

أولاً – ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال «قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ: فَقِيلَ: نَعَمْ. فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ. قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ. قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ، وَهَوْلًا، وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**»[1].

ثانياً – وقصة الغار، وهي قوله تعالى: **﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** (التوبة:٤٠).

وفي الحديث عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ، فَرَأَيْتُ آثَارَ الْمُشْرِكِينَ ـ وفي رواية: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن

(١) صحيح مسلم، برقم (٦١٦٩).

في الغار ـ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا قَالَ: «**مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»[1].

ثالثًا – وما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: «أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمُ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاهِ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ، فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ. قَالَ جَابِرٌ: فَنِمْنَا نَوْمَةً، ثُمَّ إِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُونَا، فَجِئْنَاهُ، فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ، وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ. فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ**» ثُمَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ»[2].

رابعًا– وأمثال هذه الوقائع في السيرة النبوية كثيرة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكان سبحانه يحميه، ويصرِف عنه أذَى الناس وشَتْمَهم بكل طريق حتى في اللفظ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ؟ يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وَأَنَا مُحَمَّدٌ**» فنزَّه الله اسمه ونَعْتَه عن الأذَى، وصرَف ذلك إلى من هو

(١) صحيح البخاري، برقم (٤٦٦٣)، وصحيح مسلم، برقم (٦١٦٩).

(٢) صحيح البخاري، برقم (٤١٣٥).



مُذمَّمٌ، وإن كان المُؤْذِي إنّما قصَدَ عَيْنَهُ» اهـ[1].

ولا شك أنَّ ما جاء في هذه الأمثلة وغيرها من عِصمَة الله تعالى نبيَّه ورسوله محمدا ﷺ من الناس، وكفايته من أذاهم، لا شك أنَّها برهان شرعيٌّ للدفاع عن النبيِّ ﷺ دِفاعًا حسِّيًّا بمَنْعِ كُلِّ من يريد الإساءة إلى هذا النبيِّ المَعصوم – عليه الصلاة والسلام – أو إلى سُنَّتِه وسِيرَتِه بقول أو فعل، ورَدْعِه عن ذلك بكل طريق جائز؛ ليكون عِبْرَة لغيره، وليَشْعُرَ هو وغيره بعظمة هذا النبيِّ الكريم صلوات الله وتسليماته عليه، وبمَكانته عند الله تعالى، وعند عباده المؤمنين، وأنَّ من سُنَّة الله ﷻ أنَّ من لم يُمْكِن المُؤمنين أن يَرْدَعُوه من الذين يُسيؤون إلى رسول الله ﷺ فإنَّ الله تعالى ينتقم منه لرسوله، ويكفيه إياه، والله على كل شيء قدير[2].

***

(١) الصارم المسلول / ص ١٦٥.

(٢) انظر: المصدر السابق / ص ١٦٤.

المطلب الحادي عشر

الدِّفاع عن النبي ﷺ

ببرهان دفاعه عن نفسه وانتدابه من يدافع عنه من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين

ممَّا هو مُقرَّرٌ لدى أهل العلم أنَّ فعل رسول الله ﷺ وتقريره من سُنَّتِه، وأن سُنَّتَهُ ﷺ مصدر للتشريع كالقرآن الكريم.

وقد كان لرسول الله ﷺ في حياته مَوَاقف كثيرة دافع فيها عن نفسه الشريفة وردَّ على الذين ناوَؤُوا رسالته، وآذوه لدعوته بما يليق بهم من الرَّدِّ بحسب الحال، ويشهد لذلك:

١ – ردُّه ﷺ على من اتَّهمه بعدم العَدْل في القسمة، كما روى أبو برزة رضي الله عنه قال: أُتِيَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ بِمَالٍ فَقَسَمَهُ، فَأَعْطَى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ وَمَنْ عَنْ شِمَالِهِ، وَلَمْ يُعْطِ مَنْ وَرَاءَهُ شَيْئًا، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ وَرَائِهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا عَدَلْتَ فِي الْقِسْمَةِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مَطْمُومُ الشَّعْرِ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ غَضَبًا شَدِيدًا، وَقَالَ: «**وَاللهَّ لَا تَجِدُونَ بَعْدِي رَجُلًا هُوَ أَعْدَلُ مِنِّي**»...الحديث»[1].

(١) سنن النسائي، برقم (٤١٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧١٠١).



وإنَّما كان ردُّه هنا ﷺ بغضب شديد؛ لأنَّ هذا الرجل انتهك حُرْمَة النَّبيِّ ﷺ باتِّهامه بعدم العدل، وذلك قَدْحٌ في نبوَّتِه، فإن النبيَّ لا يَحيفُ ولا يَجُورُ، كما قال الله تعالى: ﴿ **أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ (النور:٥٠)، وإلاّ فلم يكن رسول الله ﷺ ينتقم لنفسه، بل كان يعفو ويصفح إلاّ إذا انْتُهِكَتْ حُرُمَاتُ الله تعالى، فيغضب وينتقم لذلك، كما هو الحال في هذا المَوْقف.

٢ – أمره ﷺ بقتل رجل من اليهود لإيذائه رسول الله ﷺ، وإعانته الأعداء عليه، كما روى البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «**بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَهْطًا مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى أَبِي رَافِعٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَتِيكٍ بَيْتَهُ لَيْلًا، فَقَتَلَهُ، وَهُوَ نَائِمٌ**»[1].

٣ – انْتِدَابُهُ ﷺ من أصحابه من يُدافع عنه، ويكفيه الأعداء بيده أو بلسانه، كما وقع يوم أُحُدٍ لَمَّا رَهِقَ الْمُشركون رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ يَرُدُّهُمْ عنَّا وَلَهُ الجنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ**»[2].

وكان ﷺ يقول لحسان بن ثابت رضي الله عنه – وهو شاعر رسول الله ﷺ –:

---

(١) صحيح البخاري، برقم (٣٠٢٣، ٤٠٣٩).

(٢) صحيح مسلم، برقم (٤٦٤١).

«أَجِبْ عَنِّي، اللَّهُمَ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ»[1].

وقال له يوم قريظة: «اهْجُ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ»[2].

وقال ﷺ - لحسَّان أيضًا -: «إِنَّ رُوحَ القُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنِ الله وَرَسُولِهِ»[3].

وكان يُنْصَبُ لحسَّان ﷺ منبر في المسجد يُنافِحُ عن رسول الله ﷺ بشِعْرِهِ، وهجائه للمشركين.

وكان عددٌ من الْمُشركين يكفُّون عن أشياء ممّن يُؤْذِي المسلمين خشية هِجاء حسَّان[4].

وكان غيره من الصحابة ﷺ يبذلُون أرواحهم وأموالهم في الدِّفاع عن رسول الله ﷺ، وصَوْن عِرْضِه، وكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يمدح من فعل ذلك منهم، سواءٌ قُتِلَ أو غَلَبَ، ويُسَمِّيه ناصرَ الله ورسوله، وكانوا يرون ذلك شرفًا لهم وأيّ شرف، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

---

(١) صحيح البخاري، برقم (٣٢١٢)، وصحيح مسلم، برقم (٦٣٨٤).

(٢) صحيح البخاري، برقم (٤١٢٤)، وصحيح مسلم، برقم (٦٣٨٧).

(٣) صحيح مسلم، برقم (٦٣٩٥).

(٤) انظر: الصارم المسلول، لابن تيمية / ص ٢٠٦.



فهذه بعض الشواهد لدفاع النبيِّ ﷺ عن نفسه، وانْتِدَابِه من يُدافع عنه من أصحابه الكرام ﷺ، ولا شكَّ أنَّ ذلك مِمَّا مضت به سنَّتُه ﷺ، وسُنَّة أصحابه الكرام ﷺ، وهي من السُّنَنِ الثابتة التي يجب على المُسلمين اتِّباع نبيِّهم فيها، والاقتداء بسلفهم الصالح فيها؛ لقول الله تعالى: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ (الأحزاب:٢١)، وقول رسول الله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[1].

وقد ثبت – بهذا – أنَّ دفاع النبيّ ﷺ عن نفسه، وانْتِدَابه من يدافع عنه من أصحابه برهان شرعيٌّ للدفاع عنه ﷺ، فمن ترك الدِّفاع عنه – عند وجود سببه – فقد خالف سنة نبيِّه محمد ﷺ، وكفى بذلك فتنة وخَيْبَةً، كما قال الله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (النور:٦٣).

نسأل الله السلامة من الفتنة، والنجاة من العذاب الأليم.

***

(١) سنن أبي داود، برقم (٤٦٠٧)، وسنن الترمذي، برقم (٢٦٧٦)، وسنن ابن ماجه، برقم (٤٣).

المطلب الثاني عشر
الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان إجماع الأمة الإسلامية على الدِّفاع عنه سلفًا وخلفًا وإلى أن يأتي أمر الله عز وجل

إجماع الأمة الإسلامية حُجَّة مُعْتَبَرةٌ؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣).

وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠).

ولقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي - أو قال: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ - عَلَى ضَلالةٍ، وَيَدُ اللَّـهِ مَعَ الجَماعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ**»(١).

والإجماع المُعتبَرُ به في هذه الأمة هو إجماع أهل العلم منهم الذين هم الأئمة وأُولو الأمر فيهم، ومن عداهم تَبَعٌ لهم فيما أجمعوا عليه؛ ولهذا جاء تعريف الإجماع بأنه: «اتِّفاق العلماء المُجتهدين من أمَّة محمَّد ﷺ بعد وفاته على أمر من أمور الدين»(٢).

---

(١) سنن الترمذي، برقم (٢١٦٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٨٤٨).

(٢) انظر: مذكرة أصول الفقه، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي / ص ١٧٩.



ومتى قطعنا بإجماعهم وجب الرجوع إليه ولم تَحِلَّ مُخالفتُهم لأدلة معلومة ليس هذا موضع ذكرها.

وإذا عُلِمَ هذا فقد أجمع علماء الأمة الإسلاميَّة سلفًا وخلفًا على الدِّفاع عن النبيِّ ﷺ، ونَقْطَع بإجماعهم في هذا الأمر من ثلاث طُرُقٍ:

الأولى / ما ورد في الكتاب والسنة من الأدلة الكثيرة المُقْتَضِيَة للدِّفاع عن النَّبيِّ ﷺ، وما ثبت من كلام العلماء في شرح هذه الأدِلَّة والاستنباط منها، وقد تقدَّم شيء يسيرٌ من ذلك في المَطالب السابقة في هذا البحث.

الثانية / حكاية العلماء في كُتُب العلم لهذا الإجماع خلفًا عن سلفٍ، وأَعْنِي هنا إجماعهم على منع سبِّ النَّبيِّ ﷺ، أو تَنَقُّصَهُ، أو الاستهزاء به، أو الإساءة إليه، أو إلى دينه بقول أو فعل أو بتصريح أو تلميح، وعلى أن ذلك كُفْرٌ يُخْرِجُ فَاعِلَهُ من الإسلام، ويجب قتْلُه في الدنيا على تفاصيل في ذلك.

قال القاضي عياض اليَحْصُبِيُّ: «اعلم ـ وفَّقنا الله وإياك ـ أنَّ جميع من سبَّ النّبيَّ ﷺ، أو عابه، أو أَلْحَقَ به نقصًا في نفسه، أو نَسَبِهِ، أو دينه، أو خَصْلة من خِصاله، أو عَرَّض به، أو شبَّهه بشيء على طريق السبِّ له، أو الإِزراء عليه أو التصغير لشأنه، أو الغضِّ منه، والعيب له فهو سابٌّ له، والحُكْمُ فيه حُكْمُ السابِّ يقتل كما نُبيِّنُهُ، ولا نَسْتَثْنِي فَصْلًا من فُصول هذا الباب على هذا المَقصد،

ولا نَمْتَرِي فيه تصريحًا كان أو تلويحًا. وكذلك من لعنه، أو دعا عليه، أو تمنَّى مَضَرَّةً له، أو نَسَبَ إليه ما لا يليق بِمَنْصِبِهِ على طريق الذَّمِّ، أو عبث في جِهَتِه العزيزة بسَخَفٍ من الكلام، وهُجْرٍ ومُنْكَرٍ من القول وزُورٍ، أو عيَّره بشيء مِمَّا جرى من البلاء والمِحْنَة عليه، أو غَمَصَهُ ببعض العوارض البشريَّة الجائزة، والمعهودة لديه.

وهذا كله إجماع من العُلماء وأئِمَّة الفتوى من لَدُن الصحابة رضي الله عنهم إلى هَلُمَّ جَرًّا» اهـ[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن سبَّ الله أو سبَّ رسوله كُفْرٌ ظاهرًا وباطنًا، سواءٌ كان السابُّ يعتقد أنَّ ذلك مُحَرَّمٌ أو كان مُسْتَحِلًّا له، أو كان ذاهلًا عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السُّنَّة القائلين بأن الإيمان قول وعمل.

وقد قال الإمام أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظَلِيُّ المَعروف بابن راهوية ـ وهو أحد الأئمة، يُعْدَلُ بالشافعيِّ وأحمد ـ: وقد أجمع المُسلمون أنَّ من سبَّ الله أو سبَّ رسوله عليه الصلاة والسلام أو دفع شيئًا مما أُنْزِلَ، أو قتل نبيًّا من أنبياء الله أنه كافر بذلك، وإن كان مُقِرًّا بما أنزل الله.

وكذلك قال محمد بن سحنون ـ وهو أحد الأئمة من أصحاب مالك

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: ٢/ ٢٢٠.



وزمَنُه قريب من هذه الطبقة ـ: أجمع العلماء أن شاتِمَ النبي عليه الصلاة والسلام المُنْتَقِصَ له كافرٌ، والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله، وحُكْمُه عند الأُمَّة القتل، ومن شكَّ في كفره وعذابه كَفَرَ.

و قد نص على مثل هذا غير واحد من الأئمة» اهـ[1].

الثالثة / ما ثبت من مَوَاقف الأمة الإسلاميَّة – علماء وحُكَّامًا وعامَّة – في كلِّ زمان ومكان في الدِّفاع عن نبيِّهم رسول الله ﷺ، والتصدِّي للمُتطاوِلين على مَقام هذا النبيِّ الكريم بما يُمْكِنُ من وسائل الردِّ والتعبير عن الاستنكار، على تفاوُت في هذه المَواقف قُوَّةً وضعفًا، وسلامة وتساهُلًا، ومهما يكن من ذلك فإنه دليل على ما هو مُسْتَقِرٌّ في نفوس المُسلمين من وجوب الدِّفاع عن النبي ﷺ تبعًا للكتاب والسُّنَّة، وما مضى عليه السلف الصالح من هذه الأُمَّة.

وبهذا انقطع بإجماع الأمة الإسلاميَّة سلفًا وخلفًا على الدِّفاع عن النبيِّ ﷺ، وأنَّ هذه الأُمَّة ستظَلُّ كذلك مُدافِعَة عن النبي ﷺ إلى أن يأتيَ أمر الله، وأنَّه لا يَسُوغُ لأحد من المُسلمين الخروج عن مُوجب هذا الإجماع القاطع، كيف! وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا** ﴾ (النساء:١١٥).

---

(١) الصارم المسلول / ص ٥١٢ – ٥١٣.



المبحث الثاني
في الدفاع عن النبي ﷺ بالبراهين العقلية

وفيه ستة براهين عقليَّة:

- **الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان تعظيم الله تعالى، ونصر دينه.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان لازم الإيمان به، واعتقاد نُبُوَّتِه ورسالته.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان ما له من الحقوق الواجبة على أمته.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان الانتصار للحق ورَدِّ الباطل والظلم والبغي والعدوان.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان الدِّفاع عن القِيَم العُلْيا، والمَبادِيء السامية.**
- **الدِّفاع عن النبي ﷺ ببرهان أنه دفاع عن أمة بأجمعها الأمة الإسلاميَّة.**



المطلب الأول

الدِّفاع عن النبيِّ ﷺ ببرهان تعظيم الله تعالى ونصر دينه

إنَّ كُلَّ عاقل يعلم بعقله أنَّ إرسال الأنبياء والرسل لهداية الناس في هذه الحياة، ولتأهيلهم للسعادة في الدنيا وفي الآخرة أنَّه لَمِنَّةٌ عظيمة من الله تعالى لعباده، وأنَّه من معاني رُبُوبِيَّةِ الله تعالى للعالمين، فهو سبحانه وتعالى ربُّ العالمين الذي يُرَبِّي عباده التربية الماديَّة بالخَلْق والرِّزْق وتدبير الشؤون، والتربية المعنويَّة برسالات الأنبياء المُنَزَّلَة من عند الله عز وجل.

وينبغي للعاقل أن يعلم أنَّ التربية المعنويَّة التي هي دين الله تعالى وشريعته في الأرض إنَّما هي بواسطة الأنبياء والرسل، ومحمد عليه الصلاة والسلام هو آخر الأنبياء والرسل المَبعوث إلى الناس عامَّة بدين الإسلام الذي لا يَقْبَلُ الله تعالى من عباده دينًا سواه.

فما مُحَمَّدٌ – عليه الصلاة والسلام – إلاّ رسول جاء من عند الله تعالى برسالة هي الإسلام، فمن طعن في محمد ﷺ، أو في رسالته فقد تعلَّق بهذه الإساءة إلى الرسول ﷺ حقٌّ لله تعالى: «من حيثُ كَفَرَ برسوله وعادَى أفضل أوليائه، وبارزه بالمُحاربة، ومن حيثُ طَعَنَ في كتابه ودينه، فإنَّ صِحَّتَهما موقوفة

على صحة الرسالة، ومن حيثُ طَعَنَ في أُلُوهِيَّته، فإنَّ الطعن في الرسول طَعْنٌ في المُرْسِل، وتكذيبُه تكذيبٌ لله تبارك وتعالى وإنكارٌ لكلامه وأمره وخبره وكثير من صفاته»[1].

وعكس ذلك بالعكس، فمن عظَّم رسول الله محمَّدًا ﷺ، ونَصَرَ دينه فقد عظَّم الله تعالى ونَصَرَ دين الله تعالى، «فإن تعظيم الرسول وإجلاله ومَحَبَّتَهُ وطاعته تابعٌ لتعظيم مُرْسِلِه سبحانه وإجلاله ومحبَّته وطاعته، فمُحَالٌ أن تثْبُتَ المَحَبَّةُ والطاعة والتعظيم والإجلال للرسول ﷺ دون مُرْسِلِهِ ﷻ، بل إنَّما يَثْبتُ ذلك له تبعًا لِمَحَبَّة الله ﷻ وتعظيمه وإجلاله؛ ولهذا كانت طاعة الرسول ﷺ طاعة لله، فـ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (النساء:٨٠)، ومبايعته مبايعة لله، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح:١٠)، ومحبَّتُه مَحَبَّة لله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران:٣١)، وتعظيمُه تعظيمًا لله، ونُصْرَتُه نُصْرَةً لله، فإنَّه رسوله وعبده الداعي إليه وإلى طاعته ومحبَّته وإجلاله وتعظيمه وعبادته وحده لا شريك له»[2].

ولا يَخْفَى على عاقل أنَّ الدِّفاع عن النَّبيِّ ﷺ وتَبْرِئَتَهُ من التُّهَم

(١) الصارم المسلول، لابن تيمية / ص ٢٩٣.

(٢) جلاء الأفهام، لابن قيم الجوزية / ص ٥٥٧.

والافتراءات، ومن التنقُّص والاستهزاء، ومن جميع صُوَر التشويه أنَّ ذلك كله تعظيم وإجلال وتقدير لرسول الله ﷺ، فيترتَّب على هذا أنَّ الدِّفاع عن النَّبي ﷺ تعظيم، وإجلال، وتقدير لله ﷻ ونصرٌ لدينه، وأنَّ ترك الدِّفاع عن النبيّ ﷺ تركٌ لهذا التعظيم والإجلال والتقدير والنصر لدين الله ﷻ، كما أنَّ الطَّعْن في رسول الله ﷺ طَعْنٌ في الله سبحانه ومُحارَبَةٌ له ولدينه، وكل عاقل يُدْرِكُ الفرق بين المَوْقِفَيْنِ، كل عاقل يُدْرِكُ أن تعظيم الله تعالى وإجلاله وتقديره ضرورةٌ شرعًا وعقلاً، وأن الطعن في الله تعالى ومُحارَبة دينه مُنْكَرٌ هو أعظم المُنْكرات شرعًا وعقلاً.

وإذا كان هذا كلُّه مما لا يَخْفَى على عاقل فقد تَبَيَّنَ أن تعظيم الله تعالى ونَصْرَ دينه برهان عقليٌّ للدفاع عن النبيِّ ﷺ، فلو لم يَرِدْ دليل شرعيٌّ بالدِّفاع عنه ﷺ لكان ما في الدِّفاع عنه من تعظيم الله تعالى ونصر دينه كافيًا في وجوب الدِّفاع عنه ﷺ.

***

المطلب الثاني

الدِّفاع عن النبيِّ ﷺ ببرهان لازم الإيمان به واعتقاد نُبُوَّته ورسالته

إنَّ كُلَّ عاقل يُـدْرِكُ أنَّ الإيـمان بمحمـد رسـول الله ﷺ واعتقـاد نُبُوَّتـه ورسالته له لازم لا ينفكُّ عنه، ولا يتحقق إلاّ به.

فمن كان مُعْتَرِفًا لمحمّد عليه الصلاة والسلام بالنُّبُوَّة مُصَدِّقًا لـه بالرسـالة لَزِمَهُ اتِّباعه في خَبَرِه، وأَمْرِه ونَهْيِه، وتعزيره وتوقيره، والذَّبِّ عنه، وعدم الإساءة إليه بقول أو فعل، فهذا كلُّه من لازم الإيمان به، واعتقاد نُبُوَّتـه ورسـالته. وهـو معروف بطريق اللُّزوم العقليِّ مع ورود الشرع به أيضًا.

وينبغي أن يُدْرِكَ كُلُّ عاقل أنَّ الإساءة إلى النبِيِّ ﷺ بقول أو فعل مُنَـافٍ لِحَقيقة الإيمان به، واعتقاد نُبُوَّتِه ورسـالته؛ ولهـذا لا يقـع في مثـل هـذه الإسـاءة قاصدًا لها إلاّ من لا يُؤمن به، ولا يعتقـد نُبُوَّتَـه ولا رسـالته، وهـو إمَّـا كـافر أو مُنافق، فإنَّ للكُفَّار والمُنافقين وأشباههم داعيًا إلى ذلك: من جهة مُخالَفتهم لـه في دينه، ومن جِهَة حسدهم له على ما آتاه الله مـن فضـله، ومـن جِهَـة اسـتكبارهم وإعجابهم بما عندهم، ومن جهة انْقِهارهم تحت حُكْم دينه وشرعه[1].

---

(١) انظر: الصارم المسلول، لابن تيمية / ص ٤٩٨.



وأمَّا المُؤمنون به المُعْتَقِدون لنُبُوَّته ورسالته فهم على خلاف أولئك؛ لأنَّ لهم داعيًا قويًّا إلى مَحَبَّته، واتِّباعه، وتوقيره، والدِّفاع عنه، ونصر دينه بالنفس والمَال، وبكل ما أوتوا من قُوَّة ووسيلة.

والذي يُسِيءُ إلى رسول الله ﷺ مِمَّن يدَّعي الإيمان به واعتقاد نُبُوَّته ورسالته – والعياذ بالله – فإنَّ إساءته إليه ﷺ دليل على بطلان إيمانه وفساد عقيدته، بل هي دليل على الاسْتِهانة برسول الله ﷺ والاسْتِخْفاف بحُرْمَته، فإنَّ من وَقَرَ الإيمان به في قلبه لم يُتَصَوَّرْ منه ذمُّه وإيذاؤُه وتنقُّصه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولرُبَّما صَدَر (السبُّ والشُّتْمُ) عمن يعتقد النُّبُوَّة والرسالة، لكن لم يأت بمُوجِب هذا الاعتقاد من التوقير والانْقياد، فصار بمَنْزِلة إبليس، حيث اعتقد رُبُوبيَّة الله سبحانه بقوله: (ربِّ)، وقد أيقن أنَّ الله أمره بالسجود، ثم لم يأت بِمُوجِبِ هذا الاعتقاد من الاسْتسلام والانقياد، بل استكبر وعاند مُعاندة مُعارض طاعن في حِكْمَة الآمر.

ولا فرق بين من يعتقد أنَّ الله ربه، وأنَّ الله أمره بهذا الأمر، ثم يقول: إنَّه لا يطيعه؛ لأن أمره ليس بصواب ولا سَداد، وبين من يعتقد أنَّ محمدًا رسولُ الله، وأنَّه صادق واجب الاتِّباع في خَبَرِه وأمره، ثم يسبُّه أو يعيب أَمْرَه أو شيئًا من أحواله، أو يَنْتَقِصَه انتقاصًا لا يجوز أن يَسْتَحِقَّه الرسول، وذلك أنَّ الإيمان

قول وعمل، فمن اعتقد الوحدانيَّة في الألوهية لله ﷻ، والرسالةَ لعبده ورسوله، ثم لم يُتْبِعْ هذا الاعتقادَ مُوجِبَه من الإجلال والإكرام ـ الذي هو حالٌّ في القلب يَظْهَرُ أثرُه على الجوارح، بل قارنه الاستخفاف والتسفيه والازدراء بالقول أو بالفعل ـ كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه، وكان ذلك مُوجِبًا لفساد ذلك الاعتقاد، ومُزيلا لِما فيه من المَنفعة والصلاح، إذ الاعتقادات الإيمانيَّة تُزكِّي النفوس وتُصْلِحُهَا، فمتى لم تُوجِبْ زكاةَ النفس ولا صلاحهَا فما ذاك إلّا لأنّها لم تَرْسَخْ في القلب، ولم تَصِرْ صفة ونَعْتًا للنفس ولا صلاحًا، وإذا لم يكن علم الإيمان المَفروض صفةً لقلب الإنسان لازمة له لم ينفعْه، فإنه يكون بمَنْزِلة حديث النفس وخواطر القلب، والنجاة لا تحصُل إلا بيقين في القلب، ولو أنَّه مثقال ذرَّة.

هذا فيما بينه وبين الله، وأمَّا في الظاهر فيجري الأحكام على ما يُظْهِرُه من القول والفعل.

والغرض بهذا التنبيه على أن الاستهزاء بالقلب والانتقاص يُنافِي الإيمان الذي في القلب مُنافاة الضدِّ ضدَّه، والاستهزاء باللسان يُنافي الإيمان الظاهر باللسان كذلك»[1].

---

(١) الصارم المسلول / ص ٣٦٩ – ٣٧٠.



وإذا تبيَّن بهذا الكلام أنَّ الإساءة بـالقول أو الفعـل إلى النبـيِّ ﷺ تُنـافي الإيمان به واعتقاد نُبُوَّته ورسالته، تبيَّن لكل عاقل أنَّ ضدَّ هذه الإساءة من المَدْح والثناء والإجلال والتوقير والاحترام والتقدير بالقول والفعـل يُـلازم الإيـمان، ويُحَقِّقُه، ويَدُلُّ عليه.

وتبيَّن لكل عاقل أيضًا أنَّ لازم الإيمان برسول الله ونبيِّه محمد ﷺ برهان في العقل للدفاع عنه ﷺ.

فاهْتِمام الإنسان بالدِّفاع عن النبي ﷺ آية إيمانه بـه ومحبَّتـه وتـوقيره لـه، وتَهَاوُنُ الإنسان في الدِّفاع عن النبي ﷺ آية كُفْرِه، أو نفاقه، أو ضـعف لإيمانـه بالنبيِّ ﷺ.

***

المطلب الثالث

الدِّفاع عن النبيّ ﷺ ببرهان ما له من الحقوق الواجبة على أمته

يعلم كلُّ إنسان أنَّ الله تعالى قد فاوت بين الناس في صِفاتهم، وأعمالهم، وآثارهم مُفاوتة لا يحيط بصُوَرِها إلاّ هو العليم الحكيم.

ويعلم كلُّ إنسان أن حقوق الناس تتفاوت بحسب تفاوُت مراتبهم، ومنازلهم التي أنزلهم الله إيَّاها في هذه الحياة الدنيا.

وإذا كان كذلك فينبغي أن يعلم كلُّ عاقل أنَّ للنَّبيِّ ﷺ على أمته من الحقوق ما ليس لغيره من الناس، وذلك بما مَيَّزَهُ الله تعالى وفضَّله بما خصَّه به من النُّبُوَّة والرسالة التي استحقَّ بها على الناس جميعًا أن يؤمنوا به، ويتَّبعوه، ويطيعوه في كلِّ ما أمر به أو نهى عنه، ويُعزِّروه، ويُوقِّروه، ويُحِبُّوه أكثر من محبَّتهم لأنفسهم، وأكثر من محبَّتهم لجميع الخلق.

ولهذا استحقَّ أيضًا ﷺ أن يكون أولى من كل أحد من الناس بأن تُرَاعَى حقوقه، ويُصَانُ عِرْضُهُ ويُبَجَّلَ ويُحْتَرَم، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأحزاب:٦)، «لأنَّه – عليه الصلاة والسلام – بذل لهم من النصح، والشَّفقة والرأفة ما كان به أرحم الخَلْق وأرأفهم، فرسول الله



أعظم الخلق مِنَّةً عليهم من كل أحد، فإنَّه لم يَصِلْ إليهم مثقال ذرَّة من الخير، ولا اندَفع عنهم مثقال ذرَّة من الشَّرِّ إلاّ على يديه وبسببه»(١)، فكيف يجوز أن يكون حقُّه كحقِّ غيره من الناس، بل يجب أن يُبَايِنَ سائر الناس في عامَّة الحقوق فرضًا وخطرًا وغيرهما، فحقُّه ﷺ بالنسبة إلى حقوق سائر الناس أوجب وأعظم.

ومن هنا يتبيَّن لكلِّ عاقل أن انتهاك عِرْضِ رسول الله ﷺ بالسبِّ، والسُّخْرِيَةِ، والانْتِقَاص، ونحو ذلك ليس كانْتِهَاك عِرْضِ غيره من الناس، بل قِياس عِرْضِهِ ﷺ بعرض غيره من أَفْسَد القياس في العقل.

وكذلك يتبيَّن لكل عاقل أنَّ الدِّفاع عن النبي ﷺ ليس كالدِّفاع عن غيره من الناس، بل الدِّفاع عنه ﷺ آكَدُ وأَوْجَبُ، بل هو أداء لأقلِّ القليل من حقوقه الواجبة على أمته، فمن ترك الدِّفاع عن النبيِّ ﷺ، أو تهاون في الدِّفاع عنه، فلا شكَّ أنّه لِمَا سوى الدِّفاع من الحُقوق الواجبة أولى بأن يَتْرُكَ أو يَتَهَاوَنَ، وهذا كله ظاهر لمن يَعْقِلُ؛ ليعلم أنَّ ما للنبيِّ ﷺ من الحقوق الواجبة على أمته برهان عقليٌّ للدفاع عنه ﷺ، بل هو برهان عقليٌّ على أنَّ الدِّفاع عنه عليه الصلاة والسلام أولى وآكد وأوجب من الدِّفاع عن كل أحد سواه من الناس.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي / ص ٧٧٤.

المطلب الرابع

الدِّفاع عن النبيّ ﷺ

ببرهان الانتصار للحق وردِّ الباطل والظلم والبغي والعدوان

الانتصار للحقِّ، وردُّ الباطل والظلم والبغي والعدوان هو طريق أهل العَدْل والإنصاف، ولا بدَّ منه في الحياة وإلاّ ساد الباطل والظلم والبغي والعدوان؛ ولهذا مدح الله تعالى الذين يَنْتَصِرون من الظلم والبغي والعدوان في قوله ﷻ: ﴿ **إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ** ﴾ (الشعراء:٢٢٧)، وقوله سبحانه: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ** ﴾ (الشورى:٣٩).

والرسول عليه الصلاة والسلام ممّن يصيبُه البَغْيُ، وتَلْحَقُهُ المَعَـرَّة بالسّـبِّ والوقيعة فيه؛ لأنَّه – ﷺ – مخلوق، وهو من جـنس الآدميِّـين الـذين تلحقهـم المَعرَّة والغضاضة بالسّبِّ والطعن والانتقاص[1] فلا بدَّ من الانتصار له كغيره من الآدميِّين على أقلِّ تقدير، فإنَّه لا يُمارِي عاقـل أنَّ شخصًـا لـو سـبَّ واحـدًا مـن الصالحين أو سبَّ واحدًا من أعيان الأُمَّة وهو ميِّت أو غائـب لوجـب عـلى مـن

(١) انظر: الصارم المسلول، لابن تيمية / ص ٤٩٧.



حضره أن ينتصر له بما يُمْكِنُ، وبما يَقْدِرُ عليه من يد أو لسان أو بالقلب، وهو أضعف ما يمكن من الانتصار[1].

ومعلوم أنَّ انتقاص رسول الله محمَّد ﷺ والطعن فيه ظلم عظيم، وبغي، وعدوان بغير حقٍّ، ولو صدر هذا الطعنُ والانتقاص ممّن لا يَعْتَقِدُ نُبُوَّته ورسالته لم يخرج بذلك أن يكون ظُلْمًا وعُدوانًا وبغيًا؛ لأنه لا يُوجد دين – وإن كان دينًا باطلا – يُبيح السبَّ والطعن في النبيِّ، بل يكون أكثر ما يعتقدون فيه أنَّه ليس بنبيٍّ، أو أنَّه ليس عليهم اتِّباعه، أما أن يعتقدوا أنَّ سبَّه ولعنته جائزة فكثير منهم أو أكثرهم لا يعتقدون ذلك، والذين يفعلون ذلك هم أهل ظُلْمٍ وَبَغْيٍ وعدوان، وهو كفر زائد على كفر التكذيب بنُبُوَّته، وكفر الإعراض عن اتِّباعه[2].

وبهذا يتبين أنَّ الانتصار للحقِّ، وردَّ الباطل والظلم والبغي والعدوان برهان عقليٌّ للدفاع عن النبيِّ ﷺ، وأنَّ كل من طَعَنَ في النبيّ محمد ﷺ فإنَّما طعن فيه ظلمًا وبغيًا وعدوانًا بغير حقٍّ، وأنَّ كل مُنْصِفٍ من عقلاء الناس يجب أن ينتصر للحقِّ، ولصاحب الحقِّ ممن طَغَى، وبَغَى واعتدَى وإلاّ كان مُشاركًا في الباطل والظلم، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٧).

(١) انظر: المصدر السابق / ص ٤٤٢.

(٢) انظر: المصدر نفسه / ص ٢٩٠، ٤٨٤.

المطلب الخامس
الدِّفاع عن النبيّ ﷺ
ببرهان الدِّفاع عن القِيَم العُلْيَا والمَبادئ السامية

لكلِّ قوم قِيَمٌ ومبادئ يتمسَّكون بها، ويَدْعُون إليها، ويدافعون عنها، ومهما اختلف الناس في القِيَمِ والمَبادئ فلن يجدوا في القِيَم مثل التي جاء بها النبيُّ محمد ﷺ، ولن يجدوا في المَبادئ مثل التي دعا إليها رسول الله ﷺ، فقِيَمُه هي أعلى القِيَمِ، ومَبادِئُه هي أَسْمَى المَبادئ، ودينُه هو أكمل الأديان، وكتابه هو أفضل الكتب، وسُنَّتُه هي أشمل السُّنَنِ، وأخلاقه هي أعظم الأخلاق، وأُمَّتُه هم خير أمة أُخْرِجَتْ للناس.

فالطَّعْنُ في نُبُوَّة محمد ﷺ، وانْتِهَاك عِرْضِه، وتَهْوِين شأنه مُنَافٍ لهذه المَزايا بالكُلِّيَّة؛ لأنّه إن طَعَنَ في نُبُوَّتِه، وانْتَهَكَ عِرْضَه، وهوَّن شأنه سقط احترامُه وتعظيمه وتقديرُه، فسقط لذلك ما جاء به من القِيَمِ العُلْيَا والمَبادئ السامِيَة، وكثيرٌ من الناس إنَّما أعرضوا عن الإسلام، ولم يرفعوا به رأسًا لِمَا سمعوا أو رأوا مِنَ الطَّعْن والاستخفاف بنبيِّ الإسلام محمد ﷺ، ومن هنا يُعْلَمُ ما في انتهاك عِرْضِ رسول الله ﷺ من الهلاك والفساد الكبير، فإن الإنسان – كما قال شيخ



الإسلام ابن تيمية – «تُؤْذِيه الوقيعة في عِرْضِه أكثرُ ممَّا يُؤْذِيه أخذُ ماله، وأكثر مما يُؤذيه الضَّرْبُ، بل ربما كانت عنده أعظمَ مِنَ الجَرْحِ ونحوه، خصوصًا من يجب عليه أن يُظْهِرَ للناس كمال عِرْضِه وعُلُوِّ قَدْرِه؛ لينتفعوا بذلك في الدنيا والآخرة، فإنّ هتك عِرْضِه قد يكون أعظمَ عنده من قتله، فإنَّ قَتْلَه لا يَقْدَحُ عند الناس في نُبُوَّته ورسالته وعُلُوِّ قَدْرِهِ، كما أنَّ موته لا يقدح في ذلك، بخلاف الوقيعة في عِرْضِه فإنَّها قد تُؤَثِّر في نفوس بعض الناس من النُّفْرَةِ عنه، وسوء الظنِّ به ما يُفْسِدُ عليهم إيمانُهم، ويُوجب لهم خسارة الدنيا والآخرة»[1].

وهذا في العقل أوضح من أن يحتاج إلى دليل، فإنَّه لا رَيْبَ أن الطَّعن في الدين، وتقبيح حال الرسول في أَعْيُنِ الناس، وتنفيرهم عنه من أعظم الفساد في الأرض، ويُؤَيِّد ذلك أنَّ عامَّة الآيات في كتاب الله تعالى التي تنهى عن الإفساد في الأرض، وعن السعي في الأرض فسادًا، كقول الله تعالى: ﴿ **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** ﴾ (الأعراف:٥٦)، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾ (البقرة:٦٠). وقوله سبحانه: ﴿ **وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾ (البقرة:٢٠٥)، أكثر المُراد بهذه الآيات ونحوها الطَّعْن في الأنبياء وإفساد الدِّين، لأنَّ الفساد نوعان:

(١) الصارم المسلول/ ص ٢٩٤ .

فساد الدنيا من الدِّماء والأموال والفُروج، وفساد الدين، والذي يَطْعَنُ في النّبيِّ ﷺ، ويَقَعُ في عِرْضِه يسعَى؛ لِيُفْسِد على الناس دينهم، ثم بواسطة ذلك يُفْسِدُ عليهم دنياهم، فالوقيعة في رسول الله ﷺ أصلٌ لكلِّ فساد في الأرض، إذ هو إفساد للنُّبُوَّة التي هي عِمادُ صلاح الدين، والدنيا، والآخرة[1].

و إذا ثبت أنَّ الطَّعْنَ في رسول الله ﷺ، وتقبيح حاله في أَعْيُنِ الناس هو من أعظم الفساد في الأرض، ثبت أنَّ الثناء على رسول الله ﷺ، وتحسين حاله في أعين الناس، ورفع قَدْرِه، وتعظيم شأنه، والدعاء إلى تعزيره وتوقيره واحترامه هو من أعظم الصلاح في الأرض، إذ هو سببٌ لاستمساك الناس بالقِيَمِ العُلْيَا والمَبادئ السامية التي جاء بها، ودعا إليها رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقد تبيَّن لكلِّ عاقل أنَّ القِيَم العُلْيَا والمَبادئ السامِيَة، والدِّفاع عنها برهان عقليٌّ للدِّفاع عن النبي ﷺ.

* * *

(١) انظر: الصارم المسلول، لابن تيمية / ص ٣٣٩، ٣٨٣ – ٣٨٧.



المطلب السادس
الدِّفاع عن النبيِّ ﷺ
ببرهان أنَّه دفاع عن أمة بأجمعها الأمة الإسلامية

من الحقائق المَعلومة للمُوافق والمُخالف أن نبيَّ الله ورسوله محمدًا ﷺ قد خلَّف في الأرض أُمَّة هي أكبر أُمَّة استجابت للأنبياء والمُرسلين في تاريخ البشريَّة كلِّها، وذلك لكون محمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيِّين فلا نبيَّ بعده، ولكون رسالته خاتِمة الرسالات السَّماويَّة، فلا كتاب بعد كتابه (القرآن الكريم)، ولا دين ولا شريعة بعد دينه وشريعته (الإسلام)، وفي الحديث عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «**أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ آخِرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[1].

هذه الأمة هي الأُمَّة الإسلامية منذ بُزوغ فجر الإسلام، وإلى أن يأتيَ أمر الله، هم المُسلمون والمُسلمات في كل زمان وفي كل مكان، في القديم والحديث، وفي مشارق الأرض ومغاربها، وفي كل بُقْعَةٍ من الأرض، من العَرَب ومن العَجَم، ومن كل شَعْبٍ ومن كل قبيلة، من ذكر أو أنثى، كبير أو صغير، من

(١) سنن الترمذي، برقم (٣٠٠١)، وسنن ابن ماجه، برقم (٤٢٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٣٠١).

الإنس والجنِّ، هم كلُّ ناطق بـ (لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله) مؤمن بذلك.

إنَّ نبيًّا هذه أُمَّتُهُ المُؤمنة بـه هـل يَظُـنُّ ظـانٌّ، أو يحسـب عاقـل أن الطَّعْـنَ والوقيعة فيه كالطعن والوقيعة في واحد من عَرْضِ الناس! كلاّ، أو يظنُّ ظانٌّ، أو يَحْسَبُ عاقل أنَّ الطعن والوقيعة في هذا النبيِّ ﷺ يكون مقصورًا عليـه فقـط! كلاّ، ثم كلاّ، إنَّ من ظنَّ ذلك، أو حَسِبَ ذلك فقد أخطأ ألـف مـرَّة، ولم يَعْـرِفْ قَدْر هذا النّبيِّ ﷺ، وحُرْمَتَهُ، ولا مَنْزِلَتَهُ في قلوب أمته.

إنَّ الطعن في النبيِّ محمد ﷺ قـد تعلَّـق بـه حـقِّ أمتـه، وهـو حـقُّ جميـع المؤمنين به، «فإنَّ قِيام أمر دنياهم ودينهم وآخـرتهم بـه، بـل عامَّـة الخـير الـذي يصيبهم في الدنيا والآخرة بوسـاطته وسِـفارته»[1]، فـالطَّعْنُ فيـه طَعْـنٌ في أُمَّتِـهِ، وطَعْنٌ في كلِّ مؤمن ومؤمنة كان ويكون إلى قيام السـاعة، بـل الطعـن فيـه عنـد المُؤمنين هو من أبلغ أنواع الأذى، وهو عندهم أعظـم مـن الطعـن في أنفسـهم، وآبائهم، وأبنائهم، والطَّعْن في جميعهم، كما أنّه ﷺ أحبُّ إلـيهم مـن أنفسـهم، وأولادهم، وآبائهم والناس أجمعين؛ ولهذا يَودُّ كل واحد منهم أن يَفْتَدِيَ عِرْضَهُ الشريف بنفسه وأهله وعرضه وماله، كما تقدَّم ذِكْرُهُ عـن حـال الصـحابة معـه، ومنهم حسَّان بن ثابت رضي الله عنه الذي قال – يخاطب أبا سفيان بن الحارث –:

(١) الصارم المسلول، لابن تيمية / ص ٢٩٣.



«هجوتَ محمدًا فأجبت عنه ❋ وعند الله في ذاك الجزاءُ

هجوتَ محمدًا بَرًّا تَقِيًّا ❋ رسول الله شِيمَتُهُ الوفاءُ

فإن أبي ووالدتي وعِرْضِي ❋ لِعِرْضِ محمد منكم وِقاءُ»(١)

فعِرْض رسول الله ﷺ «عِرْضٌ قد أوجب الله على جميع الخَلْق أن يُقابِلُوه من الصلاة، والسلام، والثَّناء، والمِدْحَةِ، والمَحَبَّة، والتعظيم، والتعزير، والتوقير، والتواضع في الكلام، والطاعة للأمر، ورِعاية الحُرْمَةِ في أهل البيت والأصحاب بما لا خَفاء به على أحد من علماء المُؤمنين، عِرْضٌ به قام دين الله وكتابه وعباده المُؤمنين، به وجبت الجنة لقوم والنارُ لآخرين، به كانت هذه الأُمَّةُ خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس»(٢).

فهذ الأمة التي قامتْ برسول الله محمد ﷺ والتي بوَّأها الله تعالى في الأرض مَكانة بقوله سبحانه: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ (البقرة:١٤٣)، أُمَّةٌ عظيمة لا يُسْتَهَانُ بها كما لا يستهان بنبيِّها محمد ﷺ، فالدِّفاع عن النبيِّ ﷺ دِفاعٌ عن الأُمَّة الإسلاميَّة التي هو شهيد عليها، والدِّفاع عن الأُمَّة الإسلامية الشهداء على الناس برهان عقليٌّ للدِّفاع عن النبيِّ محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

---

(١) صحيح مسلم / فضائل الصحابة / فضائل حسان بن ثابت.

(٢) الصارم المسلول، لابن تيمية / ص ٤٨٣.

الخاتمة

وفيها:

(التدليل بالبراهين الشرعية والعقليَّة في الدِّفاع عن النّبي ﷺ على صحَّة وصدْق نُبُوَّتِه ورسالته):

بعون الله تعالى وتوفيقه قد أَوْرَدْتُ ما تيَسَّرَ لي – في هذا الوقت – من البراهين الشرعيَّة والعقليَّة للدِّفاع عن النّبيِّ ﷺ، ولا شكَّ أنَّها – على ما فيها من ضعف وقصور في جوانب عديدة – تَشْفِي صدور المُؤمنين، وتَرْوِي غَليل الباحثين عن الحقِّ، وتغيظ الحاقدين المُعاندين؛ ليموتوا بغيظهم ويلقوا الجزاء الأليم.

فإنَّها – بلا ريب – براهين ساطعة، وحُجَجٌ قاطعة، وأدِلَّة واضحة تُبْطِلُ الشُّبَه والأوهام، وتردُّ الأكاذيب والأراجيف، وتُزيل الغشا والتضليل.

بها وبنحوها من البراهين الكثيرة التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى تبيَّن سَفَهَ أحلام المُتَنَقِّصين للنبيِّ محمّد ﷺ والطاعنين في دينه وخبث نواياهم، وفساد ظاهرهم وباطنهم، حيث إنَّهم قد ناقضوا جميع البرهين الشرعيَّة والعقليَّة المُقْتَضِيَة للدِّفاع



عن نبيِّ الله ورسوله محمد ﷺ، وناقضوا الإيمان بـه، وناقضـوا ثنـاء الله تعـالى عليه، ورَفْعَهُ له ذِكْرَهُ، ونَفْيَهُ التُّهَمَ والافتراءات عنـه، وتحريمَـه إيـذاءَه بقـول أو فعل، وناقضوا محَبَّتَهُ، وتعزيزه، وتوقيره، والنصيحة له، والصلاة والتسليم عليه، وسائر حقوقه الواجبة على أُمَّته، وناقضوا تعظيم الله ﷻ، ونَصْرَ دينـه، والجهـاد في سبيله، والانتصار للحقِّ، وردَّ الباطل والظلم والبغـي والعـدوان، وناقضـوا الأُمَّة الإسلامية سَلَفَهَا وخَلَفَهَا، ورَمَوْهَا بأجمعها عن قَوْسٍ واحدة، فـأَتَوْا بهـذه المَفاسد العظيمة التي تضمَّنت – مع الكفر – أذَى الله تعالى وأَذَى رسـوله ﷺ، وانْتِهَاك تلك الحُرْمَة التي هي أفضل حُرْمَة الخَلْق أجمعين والوقيعـة في عِـرْضٍ لا يُسوَّى بغيره مـن الأعـراض، والطَّعْـن في صـفات الله وأفعالـه، وفي كتـاب الله ودينه، وفي جميع الأنبياء والمُؤمنين بهم من عبـاد الله، فـإنَّ الطَّعْـنَ في واحـد مـن الأنبياء طَعْنٌ في جميع الأنبياء، وطعن فيمن آمن بالنبيِّ محمـد ﷺ مـن الأنبيـاء والمُؤمنين المُتقدِّمين والمُتأخرين.

و إذا عُلِم هذا وتقرَّر كما سبق بيانه، فإنَّ هذه البراهـين الشرعيَّة والعقليَّـة مُتضافِرة ومتعاضدة مع براهين لا تُعَدُّ ولا تحصى من النقل من القـرآن الكـريم، والسُّنَّة النبويَّة، والكتب السماويَّة، وإجماع المُسلمين في كل زمـان ومكـان، ومـن العقل الصحيح، والفطرة السليمة، ومن الحسِّ والعادة الحكيمة، كل هـذه عـلى

تنوُّعِها وتعدُّدها مُتَوَفِّرَةً، ومُتَعاضِدَة، ومُتَضَافِرَة في الدَّلالة على صِحَّة وصِدْق نُبُوَّة محمد ﷺ ورسالته، وأنَّ جميع خصائص النُّبُوَّة التي كانت فيه هي أكمل شكلاً ومضمونًا، وأصحُّ روايةً ونقلاً، وأبعد عن الشُّبُهَات والأباطيل.

فنُبُوَّة محمد رسول الله ﷺ هي أثبتُ نُبُوَّة في تاريخ النُّبُوَّات كلها، وشخصيَّة محمد عليه الصلاة والسلام هي أعظم شخصيَّة في تاريخ البشريَّة كلها، فحياتُه، وسِيرَتُه، ورسالته، ودعوته قد جمعت ما تفرَّق فيمن قبله من الأنبياء والرسل مما تَمَيَّزُوا به، وبه أكمل الله تعالى صَرْحَ النُّبُوَّات، وبه أتمَّ حقيقة الرسالات، كما قال عليه الصلاة والسلام عن نفسه: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**»[1].

فليس بعد نبيِّ الله ورسوله محمّد ﷺ نبيٌّ ولا رسول، وليس عند أهل الأرض في وقتنا هذا عِلْمٌ موروث يُشْهَدُ عليه أنَّه من عند الله تعالى إلاّ العِلْمُ المَوروث عن محمد رسول الله ﷺ، وما سوى ذلك مِمَّا يُؤْثَرُ عن غيره من الأنبياء فقد اشْتَبَهَ، واختلط كثير منه أو أكثره، والواجب فيما لا يُعْلَمُ حقيقته منه

(١) صحيح البخاري، برقم (٣٥٣٥)، وصحيح مسلم، برقم (٥٩٦١).



أن لا يصدَّق ولا يكذَّب.

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسوا مُحافظين على شريعة مُوَرَّثة، بل بدَّلوا الكتاب وغيَّروا وحرَّفوا الكلم عن مواضعه، وكل بُرْهَة من الدهر تَبْتَدِعُ لهم رُهْبَانُهم وأحبارهم شريعة من الدين لم يأذن بها الله تعالى، ثم لا يَرْعُونَها حقَّ رعايتها، ويطعنون فيما جاء به محمد رسول الله ﷺ من التوحيد والشرائع وأنباء الغيب، وإنَّما ذنبه الأعظم عند اليهود أن غيَّر شريعة التوراة، وأن لم يكن من بني إسرائيل، كما أنَّ ذنبه الأعظم عند النصارى أن قال: إنَّ عيسى عبد الله ورسوله، ولم يَقُلْ: هو ابن الله، ولا هو الله، ولا ثالث ثلاثة، وغير ذلك من شِرْكِهم وأكاذيبهم(١).

وجُمْلَةُ القول: أنَّ نُبُوَّة محمد ﷺ ورسالته صحيحة، وصادقة، وثابتة بالبراهين الواضحة الظاهرة التي لا سبيل إلى ردِّها أو دحضها بوجه مَقبول إلاّ بعِناد ومُكابرة، وأنَّ هذه البراهين قائمة وماثِلة للعقول والحَواسِّ في كلِّ زمان، وأنَّه لا يمكن إثبات النُّبُوَّات السابقة بوجه دقيق وصحيح إلا بإثبات نُبُوَّته ورسالته، فإنَّ كُتُبَ اليهود والنصارى وأمثالهم تَصِفُ الأنبياء والرسل بما يَتَنَزَّهُ عنه آحادُ الناس فضلاً عن أَشْرَافهم من القبائح والسَّفَاسف.

(١) انظر: الصارم المسلول / ص ٢٤٩.

وهذا القرآن العظيم الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ آيـةٌ عُظْمَـى عـلى صحَّة وصدق نُبُوَّتِه ورسالته، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّـذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

ولقد مضى الكلام عن التحدِّي بهذا القـرآن، وعجـز البشرـ عـن الإتيـان بسورة واحدة – ولو بأقصر سورة – من مِثْله، والبشر اليوم في أَرْقَى العُصور من ناحية علوم الكون وتسخير طاقاته والطِّبِّ والاقتصاد والرياضـيات والسياسـة ونحو ذلك من العلوم الحديثة، ومع هـذا كلـه فـالقرآن لا يـزال يتحـدَّى العـالَمَ بإعجــازه البلاغِــيِّ، والعلمــيِّ، والإصــلاحيِّ، والســياسيِّ، والاقتصــاديِّ، والتشريعيِّ، ويَشْهَدُ لكل عاقل مُتَدَبِّرٍ بأن محمدًا نبيّ الله ورسوله حقًّـا وصـدقًا، وبأنَّ الواجب على الناس كافَّة أن يُؤْمِنوا بنُبُوَّتِـه ورسـالته وبكتابـه الْمُنَـزَّل عليـه من عند الله تعالى لإصلاح البشر، وبأنَّه لا صلاح لهم في العاجـل ولا في الآجـل بدون ذلك(٢).

---

(١) في الصحيحين، وقد سبق في القدمة الثالثة.

(٢) انظر – فيما سبق من الكلام –: الـوحيّ المحمـديّ، لمحمـد رشـيد رضـا / ص ٨٣، ٣٤٥، ٣٥١.



وأخيرًا: رُبَّما يقول قائل: إنَّ ما أظهره الله تعالى لنبيِّه ورسوله محمد ﷺ من الآيات والبراهين المُحقِّقَة لصِحَّة وصدق نُبُوَّته ورسالته تُزِيل عنه عارَ الطَّعْن والسبِّ والتَّنَقُّصِ، وتُبَيِّنُ أنَّه مُبَرَّأٌ من ذلك، وتغني عن تكلُّف الردِّ والدِّفاع عنه ﷺ.

والجواب عن هذا الإيراد – كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية –: أنّه إيراد فاسد، وذلك لأنَّ مثل هذا الطَّعْنِ والسبِّ والتَّنقُّص للنبيِّ ﷺ لا يُخَاف من تأثيره في قلوب أولي الألباب، وإنَّما يُخَافُ من تأثيره في عُقول ضعيفة وقُلوب مريضة، ثم سَمْعُ العالم بالطعن فيه والسبِّ له من غير نكير يُصَغِّرُ الحُرْمَة عنده، وربما طَرَق له شُبْهَة وشكٌّ، فإنَّ القلوب سريعة التقلُّب، وكما أنَّ حدَّ القَذْف شُرِعَ صَوْنًا للعِرْضِ من التلطُّخ بهذه القاذورات، وسَتْرًا للفاحشة وكَتْمًا لها، فشرْعُ ما يَصُونُ عِرْضَ الرسول من التلطيخ بما قد ثَبَتَ أنَّه بريء منه أَوْلَى، وسَتْرُ الكَلِمَات التي أُوذِيَ بها ونِيلَ منه فيها أَوْلَى؛ لِمَا في ذكرها من تسهيل الاجتراء عليه[1].

فعُلِمَ بهذا الجواب المُقْنِع وتبيَّن أنَّ الدِّفاع عن النبيِّ ﷺ بالتصدِّي للكافرين، والمُنافقين، والمُلحدين، والمُغرضين، والمُنهزمين الذين يَنْتَهِكُون عِرْضَ

(١) الصارم المسلول / ص ٤٥١ – ٤٥٢، بتصرف.

رسول الله ﷺ، ويَتطاولون على حُرْمَته بأقوال وأفعال كاذبة ظالِمة خبيثة أنَّ ذلك من الواجبات الدينيَّة، ومن الفرائض الإسلاميَّة، وما تقدَّم بَحْثُه من البراهين الشرعيَّة والعقليَّة في الدِّفاع عن النبيِّ ﷺ ظاهرة وكافية في تقرير ذلك بوضوح وجلاء لكلِّ إنسان عاقل.

ولابدَّ في هذا الدِّفاع من العناية بإبراز فضائل هذا النبيِّ الكريم وخصائصه ﷺ، وشَرْح مَحاسن دينه وسَماحته، وكماله، وتعاليمه العالية، ومبادئه الراقِية، وأصوله الراسخة.

فهذا كُلُّه من أعظم طُرُق الدَّعْوَة إلى الإسلام وأحسنِها، ومن أقوى طُرُق الجِهاد في سبيل الله، ومُواجهة الأعداء خصوصًا في هذا العصر الحاضر، فإنَّ المُنصف منهم أو من لم يملكه التعصُّب إذا أبصر الحقائق بأدِلَّتِها التي تُزيل الشُّبَه، وتَدْحَض الباطل كان من أكبر الدواعي لدخوله في الإسلام وقَبوله له، إذا لم يَحْصُلْ له مَوانع قويَّة.

وأما المُعاند والمُكابر والمُقَلِّد المُنْخَدِعُ منهم فقد قامت عليه الحُجَّة، وربَّما كفَّ ذلك من شرِّهم كلِّه أو بعضه فيَحْصُل من المَصالح ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى.

وفي الخِتام: أشكر الله الكريم على ما مَنَّ به ويسَّر من إعداد هذا البحث، وتحريره، وإتمامه على هذه الصورة المُتواضعة التي أرجوه سبحانه وتعالى أن يتقبَّله منِّي وأن



يَعْفُوَ عنِّي ما حصل فيه من خطأ، أو نسيان، أو خلل فنِّيٍّ، وكل ذلك حاصل لا محَالة.

كما أسأله ﷻ أن ينفع بهذا البحث، ويَبْلُغَ به الغاية المَرْجُوَّة من كتابته وإخراجه للناس، وأن يُجْزِل الأجر والثواب للجمعيَّة العلميَّة السعوديَّة للسُّنَّة وعلومها على دعوتها لكتابة هذه البحوث المُفيدة المُباركة، وعلى تنظيمها لهذا المُؤتمر الدُّوَلِيِّ عن (نبيّ الرحمة ﷺ)، جعل الله تعالى ذلك كله في مَوازين حسنات القائمين على هذه الجمعيَّة المُشَرَّفة والراعين لها من عُلماء، ومَسْؤُولين، ومُوَظَّفين، وبارك في جهودهم، ونفع بهم الإسلام والمُسلمين، وحَفِظَهُم من كلّ سوء ومَكروه في الدنيا والآخرة.

والحمد لله الذي بنعمته تَتِمُّ الصالحات، وصلى الله وسلم وأَنْعَمَ وبارك على نبيِّه ورسوله محمد خاتم النبيِّين، وإمام المُرسلين وسيِّد ولد آدم أجمعين، وعلى آله وأصحابه البرَرَة الكرام، ومن تَبِعَهم، واقْتَدَى بهم إلى يوم الدين.

واغادوغو – بوركينافاسو

في ٨/ ٢/ ١٤٣١هـ

* * *

قائمة المراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر والمراجع:

(١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) / دار الكتاب العربي – بيروت.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى / للقاضي عياض بن موسى اليحصبي / تحقيق حسين عبد الحميد نيل / شركة دار الأرقم – بيروت.

(٣) الصارم المسلول على شاتم الرسول، لشيخ الإسلام ابن تيمية / تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد / نشر دار عالم الكتب ١٤٠٣هـ.

(٤) المعجم الوسيط / مجمع اللغة العربية / دار الدعوة – استانبول.

(٥) المُفردات في غريب القرآن / للراغب الأصفهاني / تحقيق محمد سيد كيلاني / دار المعرفة.

(٦) النُّبُوَّات / لابن تيمية / تحقيق محمد عبد الرحمن عوض / ط١ ١٤٠٥هـ / دار الكتاب العربي.

(٧) الوحي المُحَمَّدِيُّ، للشيخ محمد رشيد رضا / المكتب الإسلامي/ ط٩/ ١٣٩٩هـ.

(٨) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن / للشيخ محمد الأمين الشنقيطي / ط١ ١٤١٧هـ/ دار إحياء التراث العربي.



(٩) تفسير البغوي (معالم التنزيل)/ تحقيق مجموعة من المحققين / ط١ ١٤١١هـ / دار طيبة.

(١٠) تفسير التحرير والتنوير / للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور / ط١ ١٩٨٤م / الدار التونسية.

(١١) تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) / تحقيق الدكتور عبد الله التركي / ط١ ١٤٢٢هـ / دار هجر.

(١٢) تفسير القرآن العظيم / للحافظ ابن كثير / تحقيق عبد الرزاق المهدي / ط١ ١٤٢٢هـ / دار الكتاب العربي.

(١٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي / باعتناء سعد ابن فواز الصميل / ط١ ١٤٢٥هـ / دار ابن الجوزي – الرياض.

(١٤) جامع العلوم والحكم / لابن رجب الحنبلي / تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس / ط٢ ١٤١٢هـ / مؤسسة الرسالة.

(١٥) جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام / ابن قيم الجوزية / تحقيق مشهور بن حسن / ط١ ١٤١٧هـ / دار ابن الجوزي.

(١٦) زاد المعاد في هدي خير العباد / لابن قيم الجوزية / تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبدالقادر الأرناؤوط ط٤ ١٤٢٤هـ / مؤسسة الرسالة.

(١٧) سنن ابن ماجة / تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي / مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

(١٨) سنن الترمذي / تحقيق أحمد شاكر وآخرين / دار الكتب العلمية.

(١٩) سنن الدارمي / تحقيق الدكتور مصطفى ديب البغا / ط٢ ١٤١٧هـ / دار القلم – دمشق.

(٢٠) سنن النسائي / ترقيم مكتب تحقيق التراث الإسلامي / ط٢ ١٤١٢هـ / دار المعرفة.

(٢١) سنن أبي داود / تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا / ط١ ١٤٢٢هـ / دار المعرفة.

(٢٢) صحيح البخاري/ مكتبة دار السلام – الرياض / ط٢ / ١٤١٩هـ.

(٢٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته / للشيخ ناصر الدين الألباني / ط١ ١٤١٤هـ / المكتب الإسلامي.

(٢٤) صحيح مسلم / دار السلام – الرياض / ط٢ / ١٤٢١هـ.

(٢٥) في ظلال القرآن / سيد قطب / ط٨ ١٣٩٩هـ / دار الشروق.

(٢٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية / جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم / ط ١٤١٢هـ / دار علم الكتب.

(٢٧) مذكرة أصول الفقه، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي / ط٥ ١٤٢٢هـ / مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة.

(٢٨) مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني / المكتب الإسلامي – بيروت.

❊ ❊ ❊

الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها (سنن)



هاتف : ٢٥٨٢٧٤٩ – ١ – ٠٠٩٦٦

فاكس: ٢٥٨٢٧٤٣ – ١ – ٠٠٩٦٦

المملكة العربية السعودية

ص . ب ٤٦٨١١ الرياض ١١٥٤٢

www.sunnah.org.sa
sunnah@sunnah.org.sa